الدكتور محمد السعدى فرهود

مباحث
في كتاب نقد النثر

دار الطباعة المحمدية
٣ درب الأتراك بالأزهر

الطبعة الأولى

١٣٩٩ هـ — ١٩٧٩ م

بسم الله الرحمن الرحيم

وأحمد الله رب العالمين ، وأصلى وأسلم على الرسول الأمين ، محمد بن عبد الله المبعوث رحمة للناس أجمعين .

وبعـــد :

ففى كتاب (نقد النثر) المنسوب إلى « قدامة بن جعفر » مباحث كثيرة ، فى الأدب ،والنقد ، والبلاغة ، واللغة ، والنحو ، والمنطق ،والمذاهب ... الخ . وقد اصطفيت منها عدة مباحث ، لألخصها ، وأشرحها ، وأعلق عليها .

وسبق أن تناولت هـذه المباحث التناول ذاته ، فى كتابى : (العبارة وتأليفها فى كتابى نقد النثر والبرهان) ، المنشور فى القاهرة سنة ١٣٩١ هـ / ١٩٧٢ م . وفيه مراجع ما يضمه هذا المصنف الذى بين يديك ، وفيه مصادر نقوله .

وأسأل الله — تعالى — التوفيق والسداد ؟

المنصورة | السابع من شعبان ١٣٩٩ هـ
| الثالث من يوليو ١٩٧٩ م

محمد السعدى فرهود

صفة البيان

﴿ « بسم الله الرحمن الرحيم » :

صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم . إن أولى ما افتتح به اللبيب كتابه ، وابتدأ به الأديب خطابه ، ما افتتح الله به القرآن ، وجعله آخر دعوى أهل الإيمان ؛ فالحمد لله شكراً لنعمته ، واعترافاً بمنته . وصلى الله على « محمد » وعترته ، والأخيار من ذريته . وأما بعد ، فإنك ذكرت لى وقوفك على كتاب « عمرو بن بحر الجاحظ » الذى سماه « كتاب البيان والتبيين » ، وأنك وجدته إنما ذكر فيه أخباراً منتخلة ، وخطباً منتخبة ، ولم يأت فيه بوصف البيان ، ولا أتى على أقسامه فى هذا اللسان ، وكان عند ما وقفت عليه غير مستحق لهذا الاسم الذى نسب إليه ، وسألتنى أن أذكر لك جملا من أقسام البيان ، آتية على أكثر أصوله ، محيطة بجماهير فصوله ، يعرف بها المبتدىء معانيه ، ويستغنى بها الناظر فيه ﴾ .

يخاطب المصنف صديقا لم نتبينه — وكان من عادة الكتاب أن يؤلفوا كتبهم برسم وجيه من الوجهاء أو عين من الأعيان — وبنى المصنف سبب تأليفه لكتابه على ما وجده فى كتاب (البيان والتبيين) للجاحظ من قصور عن تعريف البيان وأقسامه ، فهو ـ فى وهمه ـ غير حقيق باسمه .

والجاحظ هو من نعلم : أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب بن فزارة ، وقد ولد فى البصرة حوالى سنة ١٦٠ هـ ، ونشأ فيها وهى فى قمة ازدهارها وتموجها بالحياة العقلية والفكرية والأدبية واللغوية ، وألف أكثر من ثلثمائة كتاب فى مختلف العلوم والفنون : فى اللغة ، والأدب ، والبلاغة ، والنقد ، وفى الفقه ، وعلوم القرآن ، والكلام ، وفى الاجتماع ، والسياسة ، والاقتصاد ، والأخلاق ، والتاريخ ، وفى الحيوان ، والنبات . واشتهر بخمسة

كتب ؛ هى (البيان والتبيين) ، و (البخلاء) ، و (الحيوان) ، و (المحاسن والأضداد) ، و (رسالة التربيع والتدوير) .

وتتميز كتابته بعدة أمور ، منها : الاعتماد على العقل والبرهان ، واستخدام الجدل والشك أساسا للمنطق ، وإيراد الكلام على طريقة المعتزلة ، ومزج الأدب بالفلسفة والفكاهة والسخرية والنادرة ، وخلط الجد بالهزل ، وإيثار اللهجة الخطابية . والاستقصاء والاستقراء ، ومحاولة الإحاطة بالمعانى ، وإيثار العبارة الواضحة وإن جاء الاستطراد والجمل الاعتراضية عبئا عليها .

أما كتابه (البيان والتبيين) فإنه — على عكس ما زعم المصنف — تناول البيان وعرفه بأنه : اسم جامع لكل شىء يكشف لك قناع المعنى ويهتك الحجب دون الضمير حتى يفضى السامع إلى حقيقته ويهجم على محصوله . وأوضح غايته فى الفهم والإفهام . وقرر أن المعانى قائمة فى الصدور مضطربة فى النفوس متصورة فى الأذهان متصلة بالخواطر حادثة عن الفكر . وإنما تحيا تلك المعانى فى ذكرها والإخبار عنها . وأنه على قدر وضوح الدلالة وصواب الإشارة وحسن الاختصار ودقة المدخل يكون إظهار المعنى . وكلما كانت الدلالة أوضح وأفصح والإشارة أبين وأنور كان البيان أنفع وأنجع ، وأن أحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره ومعناه فى ظاهر لفظه . وإذا كان المعنى شريفا واللفظ بليغا وكان صحيح الطبع بعيداً من الاستكراه ومنزها عن الاختلال ومصونا عن التكلف صنع فى القلب صنيع الغيث فى التربة الكريمة . ومتى فصلت الكلمة على هذه الشريطة ونفذت من قائلها على هذه الصفة أصحبها الله من التوفيق ومنحها من التأييد ما لا يمتنع من تعظيمها به صدور الجبابرة ولا يذهل عن فهمها عقول الجهلة .

وجوه البيان

« البيان على أربعة أوجه ؛ فمنه بيان الأشياء بذواتها وإن لم تبن بلغاتها ، ومنه البيان الذى يحصل فى القلب عند إعمال الفكرة واللب ، ومنه البيان الذى هو نطق باللسان ، ومنه البيان بالكتاب الذى يبلغ من بعد أوغاب » .

البيان أربعة أقسام ، وهى : البيان بالاعتبار ، والبيان بالاعتقاد ، والبيان بالعبارة ، والبيان بالكتابة .

فالبيان بالاعتبار : هو بيان الأشياء بذواتها ودلالتها على نفسها وعلى منشئها ومبدعها ، وبعض هذه الأشياء ظاهر يدرك بالحس ، وبعضها باطن يحتاج إلى الاستدلال عليه ؛ وهذا يوجب البحث فى وجوه الاستدلال وطرقه ، كالقياس ، والحد ، والوصف ، والرسم ، والخبر والحدس كطريقين للاستدلال .

والبيان بالاعتقاد : هو بيان ينشأ فى القلب من إعمال الفكر واللب ، وهو نتيجة لما يحدثه القياس والخبر فى النفس من : حق يصل إلى درجة العقيدة ، أو علم تدعمه الحجة ، أو باطل يلزم تكذيبه .

والبيان بالعبارة : هو منطق اللسان ، وهو بيان ينفرد به الإنسان ؛ ليخبر به عما فى نفسه من الحكمة التى أفادها والمعرفة التى اكتسبها ، ويتحقق هذا البيان بالشعر وبالنثر ، وكلاهما ألوان وفنون على نحو ماتراه فى مباحث هذا الكتاب .

والبيان بالكتابة : هو نقل المعارف إلى من غاب فى الزمان وفى المكان . والبحث فى هذا يشمل الكتبة وأنواعهم ، وما ينبغى أن يتوافر فيهم وفى صنعتهم ؛ من الحفاظ على اللغة ، وممارسة الأساليب ، ورصد

أحكام الشريعة والاجتماع لمن يكتب فيها ، ورعاية مقتضيات الأحوال ، ومخاطبات الخواص والعوام والساسة والرعية .

البيان بالقول (العبارة)

﴿ البيان بالقول هو العبارة ، وقد قلنا : إنه يختلف باختلاف اللغات، وإن كانت الأشياء المبين عنها غير مختلفة فى ذواتها ، وإن منه ظاهراً ومنه باطنا ، وإن الظاهر منه غير محتاج إلى تفسير ، وإن الباطن هو المحتاج إلى التفسير وهو الذى يتوصل إليه بالقياس والنظر والاستدلال والخبر ، ونحن نذكر الآن ذلك بشرحه — إن شاء الله — فنقول :

إن الذى يوصل إلى معرفته من باطن القول بالتميز والقياس ، مثل قول الله — عز وجل — : (اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير) ، وهو لم يفوض إليهم أن يعملوا بما أحبوا ولم يخلهم من الأمر والنهى ، ومثل قوله : (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) ، وهو لم يطلق لهم الكفر ولم يبحهم إياه ، فهذا وإن كان ظاهره التفويض إليهم فإن باطنه التهدد لهم والوعيد ؛ ويدل على ذلك قوله بعقب هذا : (إنا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا) .

وأما ما يوصل إليه بالخبر فمثل « الصلاة » التى هى فى اللغة الدعاء ، و « الصيام » الذى هو الإمساك ، و « الكفر » الذى هو ستر الشىء ؛ فلولا ما أتانا من الخبر فى شرح مراد الله فى الصلاة والصيام ومعنى الكفر ؛ لما عرفنا باطن ذلك ولا مراد الله فيه ولا كان ظاهر اللغة يدل عليه ، بل كنا نسمى كل من دعا مصليا ، وكل من أمسك عن شىء صائما ، وكل من ستر شيئا كافراً ، فلما أتانا الرسول — صلى الله عليه وسلم — بحدود

الصلاة من التكبير والركوع والسجود والتشهد ، وبحدود الصيام من ترك الأكل والشرب والنكاح نهاراً ، وأن الكافر الذى يجحد الله ورسله؛ وصلنا إلى علم جميع ذلك بالخبر ، ولولاه ما عرفناه ﴾ .

العبارة — أو التعبير القولى — تختلف باختلاف اللغات وإن اتفقت مسميات الأشياء ؛ فالشمس ، على سبيل المثال ، واحدة فى ذاتها ، وهى كذلك فى اعتقاد العربى والعجمى ، فإذا صرت إلى اسمها وجدته فى كل لسان بخلاف ماهو فى غيره ، وكذلك غير الشمس من الذوات، والصفات، والأفعال . والتعبير بالقول هنا أوسع من أن يشمل النطق باللسان والخط بالقلم — أى الكتابة — فإن صورة الحروف والكلمات تختلف أيضا باختلاف اللغات وتتغاير بتغاير الناس ، وإن كانت ما تصوره غير متخالفة وغير متغايرة فى ذواتها .

ومن الذوات والصفات والأفعال : ماهو ظاهر جلى منكشف تدركه الكافة ، فهو مستغن بظهوره عن طلبه وشرحه ، وتفسيره وبيانه ، وربما تساوى الناس فى العلم به . ومنها ماهو باطن خفى مستور لا يدركه إلا الخواص أو خواص الخواص ، فهو بحاجة إلى جلائه وإظهار خفائه والفحص عنه ، ويتفاوت الناس فى تجليته وتمايز أقدارهم بقدر مافقهوه منه ، وهنا تتضح فضيلة المعرفة .

وأداة المعرفة : إما القياس والنظر ، وإما الاستدلال والخبر المنقول والمروى ، فمن الأول قوله تعالى فى سورة فصلت : (إن الذين يلحدون فى آياتنا لا يخفون علينا ؛ أفمن يلقى فى النار خير أم من يأتى آمنا يوم القيامة ، اعملوا ما شئتم ، إنه بما تعملون بصير) ؛ ففى الآية حديث عن الذين يلحدون فى آيات الله وينحرفون فى تأويلها عن جهة الصحة والاستقامة ؛ يخبر الله عنهم — على سبيل الوعيد — أنهم لا يخفون عليه ،

وتلا هذا الحديث سؤال -على طريقة تجاهل العارف- للتنبيه إلى أن الذين يحرفون الآيات مصيرهم النار، وأن الذين يلزمون جانب الاستقامة والحق يأتون يوم القيامة آمنين .

ثم يقول لهم : « اعملوا ما شئتم » أمرا على سبيل التهديد ، وهو — سبحانه وتعالى وكما قال المصنف — لم يفوض إليهم أن يعملوا بما أحبوا، ولم يخلهم من الأمر والنهى .

ومنه قوله تعالى فى سورة الكهف (وقل : الحق من ربكم ؛ فمن شاء فليؤمن . ومن شاء فليكفر ، إنا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها، وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه ، بئس الشراب وساءت مرتفقا)؛ بدأت الآية بتقرير أن الحق من عند الله ، ويتضمن هذا معنى : جاء الحق واتضح لكل ذى بصر طريق السلامة بالإيمان واتباع الحق وطريق التعاسة بالكفر والانصراف عن الحق ؛ ولهذا أعقبه بعبارة التخيير (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) على سبيل التهديد ، وتلاه بالتذكير بمصير الظالمين وهم الذين يختارون طريق الكفر ، وشبه ما يحيط بهم من النار بالسرادق (والسرادق الحجرة تكون حول الفسطاط ،وقيل: هو دخان يحيط بالكفرة قبل أن يدخلوا النار ، وقيل هو حائط من نار يطيف بهم) ، وشبه شرابهم فى هذه النار بالمهل وهو ماأذيب من الأجساد وجواهر الأرض ، فإن استغاثوا من عطش أغيثوا به فشوى وجوههم من شدة حرارته ، ولبئس هذا الشراب وساءت النار مرتفقا ؛ أى متكأ ؛ وهو من الارتفاق وهو الاتكاء على المرفق مع نصب الساعد، ولا ارتفاق لأهل النار ، وإنما جاء قوله : (وساءت مرتفقا) لمشاكلة قوله بعد : (وحسنت مرتفقا) فى صفة المنعمين فى الجنة، تمثيلا لهم بالمنعمين فى الدنيا من الاتكاء على الأرائك . قال الزمخشرى فى الكشاف : إلا أن يكون من قول أبى ذؤيب الهذلى :

إنى أرقت فبت الليل مرتفقا كأن عينى فيها الصاب مذبوح

يقصد أن الارتفاق كناية عن التحزن والتحسر ، وفى الشطر الآخر كناية عن البكاء وانصباب الدمع ، والصاب نبت مر كالحنظل ، وذبحه شقه ليسيل منه ماؤه .

ومن الخبر المنقول المروى ما أورده المصنف من الأمثلة عن الصلاة والصيام والكفر ، فالصلاة أصلا مطلق الدعاء وجاءنا الخبر بصفة الصلاة ورسومها وشرائطها ونظامها ، ولولا الخبر ما استقرت المعرفة الخاصة بها ، وكذلك غير الصلاة من هذه المصطلحات .

الخـــبر

« الخبر : كل قول أفدت به مستمعه مالم يكن عنده ، كقولك : قام زيد ، فقد أفدته بقيامه . ومن الخبر ما يبتدىء المخبر به ، فيخص باسم « الخبر » ، ومنه ما يأتى به بعد سؤال فيسمى « جوابا » كقولك فى جواب من سألك : ما رأيك فى كذا ؟ فتقول : رأيى كذا ، وهذا يجوز أن يكون ابتداء منك فيكون خبراً ، فإذا أتى بعد سؤال كان جوابا كما قلنا . . .

والخبر منه جزم ، ومنه مستثنى ، ومنه ذو شرط ، فالجزم مثل زيد قائم ، وقد جزمت فى خبرك على قيامه . والمستثنى : قام القوم إلا زيداً ، فقد استثنيت زيداً ممن قام ، وذو الشرط : إذا قام زيد صرت إليك ، فإنما يجب مصيره إليه إذا قام زيد ، فهو معلق بشرط .

وكل واحد من هذه المعانى إما أن يكون مثبتاً وإما أن يكون منفياً ، فالمثبت ، كقولك قام زيد ، والمنفى : ماقام زيد . والمستثنى من المثبت منفى والمنفى إذا استثنى منه مثبت . وليس يخلو الخبر المثبت أو المنفى من أن يكون واجباً أو ممتنعاً أو ممكناً . فالواجب مثل حر النار وثرها ، لأنه

واجب فى طبعها . والممتنع مثل حرارة الثلج ؛ لأن ذلك ممتنع فى طبعه . والممكن مثل قام زيد ؛ لأنه قادر عليه وجائز أن يقع وألا يقع .

ثم لا يخلو الخبر بعد هذا كله من أن يكون عما مضى مثل قام زيد ، أو عما يستقبل مثل يقوم زيد، أو عما أنت فيه مثل قولك قائم زيد. ولا يخلو بعد ذلك من أن يكون عاما كليا ، أو خاصاً جزئياً ، أو مهملا . فكل ماظهر فيه حرف العموم فهو عام ، كقولك : كل القوم جاءنا ، وجميع المال أنفقت ، ومنه قول الله - عز وجل - : (كل شىء هالك إلا وجهه) ، فهذا لا يجوز أن يراد به الخصوص لظهور حرف العموم فيه . وكل ماظهر فيه حرف الخصوص فهو خاص ، كقولك : بعض المال قبضت ، ومن القوم من جاءنا ، ومثله قول الله - عز وجل - : (ومن الأعراب من يتخذ ماينفق مغرما) ، فهذا لا يجوز أن يراد به العموم لظهور حرف الخصوص فيه . وما لم يظهر فيه حرف العموم ولا حرف الخصوص فهو مهمل ، وقد يكون عامًّا وقد يكون خاصاً ، واعتباره أن تنظر : فإن كان فى الأشياء الواجبة أو الممتنعة فهو عام وإن كان لفظه واحداً ، كقول الله - عز وجل - : (بل الإنسان على نفسه بصيرة) لأنه من الواجب أن يكون كل أحد على نفسه بصيرة . وإن كان فى الممكن فهو خاص ، كقول الله - عز وجل - : (الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم) ، فهذا خاص ؛ وهذا لفظه على الجماعة ؛ لأن القول من قال والجمع ممن جمع من الأشياء الممكنة، وجائز أن يقع منهم وألا يقع . فهذا أصل يعمل به فى الخاص والعام والمهمل ﴾ .

قسم المصنف الخبر إلى خبر وجواب ، وليس ينقسم الشىء إلى نفسه وغيره ، ولكن نظره دقيق فى اعتبار جواب السؤال خبراً .

وللخبر تقسيمات متنوعة ، بحسب نوعائه الوضعى ، أو البنائى ، أو الزمانى ، أو المكانى .

فالخبر يكون جزما أو مستثنى أو مشروطاً . والجزم ما ألقى بطريق

القطع ، ولكن لا يقتضى هذا القطع صرف الجملة عن احتمال الصدق والكذب فيها لذاتها . والمستثنى ما كانت أداة الاستثناء فى بنائه بقصد طرح مابعدها من الحكم المقرر لما قبلها . والمشروط ما وقعت أداة الشرط فى تركيبه لتعلق وقوع الجواب على وقوع الشرط وجوداً أو عدماً .

وتحرير القول فى الجملة الشرطية أن أداة الشرط بمعناها قيد فى الشرط ، وأن الشرط قيد للمسند فى الجزاء ، وقد أخرجت الأداة الشرط عن الخبرية واحتمال الصدق والكذب . ويبقى الجزاء هو الذى ينصرف إليه الحكم والصفة ، فإن كان الجزاء جملة خبرية كانت الجملة الشرطية كلها خبراً وتحتمل الصدق والكذب ، تقول : إذا اجتهد هشام تفوق وإن قصر لم يتفوق ، فمفهوم هذين المثالين الحكم بحصول التفوق لهشام عند حصول اجتهاده والحكم بعدم حصول تفوقه عند حصول تقصيره .

وإن كان الجزاء جملة إنشائية كانت الجملة الشرطية كلها إنشاء ولا تحتمل الصدق والكذب . كقوله تعالى فى معاملة اليتامى عند بلوغهم الرشد : «فإن آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم ولا تأكلوها إسرافاً وبداراً أن يكبروا» (النساء ٦) والتقدير : ادفعوا إلى اليتامى أموالهم وقت إيناسكم الرشد منهم ولا تأكلوها . هذا ولعلماء المنطق وجهة أخرى مؤداها أن الحكم فى الجملة الشرطية بين الشرط والجزاء ، أما الشرط والجزاء نفساهما فلا حكم فيهما أصلا . ومفهوم قولك (إذا اجتهد هشام تفوق) عندهم : الحكم بلزوم التفوق للاجتهاد ، فالتفوق محكوم به والاجتهاد محكوم عليه .

والخبر قد يكون مثبتاً أو منفيا . ويتبين ثبوته أو نفيه من صيغته التى وضع فيها ، أو بوضعه فى أسلوب استثناء فيكون المستثنى من المثبت منفيا والمستثنى من المنفى مثبتا .

وعبارة الكتاب (والمستثنى من المثبت منفى ، ومن المنفى مثبت) .

وهى أدل مباشرة على المقابلة . مثال الأول : سافرت الصحبة إلا عصاما ؛ فقد أثبت السفر للصحبة ونفيته عن عصام ، ومثال الثانى : ما أكرمت الأصدقاء إلا خالدا وما أكرمت إلا خالدا ، فقد نفيت الإكرام عمن عدا خالد وأثبت الإكرام لخالد .

ولم يذكر المصنف مثالا لذى الشرط المثبت والمنفى ، وذلك كقول زهير :

— رأيت المنايا خبط عشواء من تصب
تمتـــه ، ومن تخطىء يعمر فيهرم
— فإن تدعـــوا السواء فليس بينى
وبينــكم — بنى حصن — بقـــاء

والخبر قد يكون واجبا أو ممتنعا أو ممكنا ، وهى أوصاف منظور فيها إلى الخصائص الذاتية ، فالنار ذات حرارة وبدون الحرارة لاتكون نارا ، والثلج ليس بذى حرارة لأنها نقيض خاصيته وهى البرودة ، فالقول بحرارة الثلج ممتنع ، وحركة زيد من الناس أمر جائز ، لأنه قادر عليها كما هو قادر على ضدها وهو السكون ، فوقوع هذا أو ذاك منه محتمل وممكن .

والمصنف يقول : (فالواجب مثل حر النار وثرها) ومن معانى « الثر » الغزارة والهدر والصياح والتفريق والتبدد والاتساع ، ولاوجه لنسبة أى منها إلى النار على سبيل الوجوب ، إلا أن يكون حرها وثرها من باب الإتباع مبالغة وتأكيداً ، مثل قولنا : حسن بسن ، وعفريت نفريت ، وشيطان ليطان .

والخبر — من حيث الوعاء الزمانى — ماض أو مستقبل أو حاضر . فالماضى وقع فى الزمن الذى قبل زمن التكلم مثل : قام سعيد ، والمستقبل يقع فى الزمن الذى يلى زمن التكلم مثل : ينجح المجتهد . والحاضر أو الحال — هو الزمن الذى أنت فيه مثل : يسافر أخوك . وقد لحظ ناشرا

(نقد النثر) أن المصنف مثل للمستقبل بالفعل المضارع ، فعقبا بأن هذا التمثيل دليل على أن الفعل المضارع أولى بالمستقبل من الحال . وهو خلاف ماعليه الحذاق من النحاة .

والخبر عام كلى أو خاص جزئى أو مهمل يوجه إلى العموم أو إلى الخصوص بحسب السياق . ويبدو أن قول المصنف : إن كل ماظهر فيه حرف العموم فهو عام وكل ماظهر فيه حرف الخصوص فهو خاص — هذا القول منظور فيه إلى القصد دون وضع اللفظ فى اعتبار العموم والخصوص . ومن أمثلة العموم قولك : كل الطلاب نجح وجميعَ المال أنفقت (بنصب جميع) — الأول لتمثيل العموم عمدة والثانى تمثيله فضلة — وقول الله - عز وجل - : (كل شيء هالك إلا وجهه) من النوع الأول ، والوجه فى الآية تعبير عن الذات العلية . ومن أمثلة الخصوص (عمدة) : بعض الطلاب تفوق ، ومن أمثلة الخصوص (فضلة) قولنا : بعضَ المال قبضت (بنصب بعض) ، وقول الله — تعالى — : (ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرما) ، والمغرم الغرامة وهو ما ينفقه المرء وليس يلزمه فهو غرامة وخسارة ، والآية فى صفة بعض الأعراب يتخذ ماينفق مغرما ؛ لأنه ينفقه رياء للمسلمين لالوجه الله . وقد وصفتهم الآيات قبل ذلك بأنهم أشد كفراً ونفاقاً وأجهل بحدود الدين ، وبعد ذلك بأن منهم من يتربص بالمسلمين الدوائر ، ومنهم من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات وصلوات ، (اقرأ الآيات ٩٧ — ٩٩ من سورة التوبة) . والخبر يكون مهملا إذا لم يظهر فيه حرف العموم ولا حرف الخصوص ، ويتعين صرفه إلى العموم إن كان فى الأشياء الواجبة أو الممتنعة وإن كان لفظه واحداً أى يدل لفظه على الواحد من حيث الوضع لا من حيث القصد ، فإذا قصد به الكل فهو مجاز مرسل علاقته الخصوص . ومثاله قوله تعالى : (بل الإنسان على نفسه بصيرة) ، وهذه الآية فيها حديث عن الإنسان كل إنسان يأتى يوم القيامة بصيرة — أى حجة وشاهداً — على نفسه ، لأن

جوارحه تنطق عنه (يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون) ، ويتعين صرف المهمل إلى الخصوص إن كان فى الأشياء الممكنة ؛ فقوله تعالى : (الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم) ، الشاهد فيه فى لفظ « الناس » الأول ، وهو لفظ يدل على الجماعة وذلك من حيث الوضع لا من حيث القصد ، فإذا قصد به الواحد فهو مجاز مرسل علاقته العموم ، والمقصود من الناس فى الآية هو « نعيم ابن مسعود الجاشعى » ، وقصة ذلك كما روتها كتب السيرة والتفسير أن « أبا سفيان » نادى عند انصرافه من « أحد » : موعدنا موسم « بدر » القابل يا محمد إن شئت ، فرد عليه الرسول الكريم : إن شاء الله ، فلما كان القابل خرج « أبو سفيان » فى أهل « مكة » حتى نزل (مر الظهران) ، فألقى الرعب فى قلبه ، فبدا له أن يرجع ، ولقى (نعيم بن مسعود الجاشعى) وقد قدم معتمرا ، فقال له : يا نعيم : إنى واعدت محمدا أن نلتقى فى موسم بدر ، وإن هذا عام جدب ، ولا يصلحنا إلا عام نرعى فيه الشجر ونشرب فيه اللبن . وقد بدا لى ، وأكره أن يخرج محمد ولا أخرج : فيزداد جراءة ، فهل لك أن تلحق بالمدينة فتثبطهم ولك عندى عشر من الإبل أضعها فى يد (سهل بن عمرو) ويضمنها . ثم خرج (نعيم) فوجد المسلمين يتجهزون ، فقال لهم : ما هذا بالرأى ، فقد أتوكم فى دياركم فلم يفلت منكم أحد إلا شريداً ، أفتريدون أن تخرجوا وقد جمعوا لكم عند الموسم فوالله لا يفلت منكم أحد ، فكره بعض أصحاب الرسول الخروج ، وأصر الرسول على الخروج ومعه جماعة من سبعين رجلا ، وبلغوا بدراً ، فأقاموا فيها ثمانى ليال ، وانتظروا مقدم قريش ، ولما لم تأت غادوا غانمين سالمين . قال الزمخشرى فى الكشاف : أطلق (الناس) على (نعيم) مع أنه المثبط وحده ؛ لأنه من جنس الناس ، كما يقال : فلان يركب الخيل ويلبس البرود ، وليس له إلا فرس واحد وبرد واحد .

الطلب

﴿ الطلب : كل ماطلبته من غيرك . ومنه الاستفهام ، والدعاء ، والنداء ، والتمني ؛ لأن ذلك كله طلب ، فإنك إنما تطلب من الله بدعائك ومسألتك ، وتطلب من المنادى الإقبال عليك أو إليك ، وتطلب من المستفهم منه بذل الفائدة لك . ومن الاستفهام ما يكون سؤالا عما لاتعلمه لتعلمه ، فيخص باسم « الاستفهام » . ومنه ما يكون سؤالا عما تعلمه ليقر لك به ، فيسمى « تقريرا » . ومنه ما يكون ظاهره الاستفهام ومعناه التوبيخ كقوله : (ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا) ، ومن السؤال ما هو محظور ، ومنه ماهو مفوض ؛ فالمحظور ماحظرت فيه على المجيب أن يجيب إلا ببعض السؤال ، كقولك : ألحماً أكلت أم خبزاً ؛ فقد حظرت عليه أن يجيبك إلا بأحدهما . والمفوض كقولك : ما أكلت ؟ فله أن يقول ما شاء من المأكولات ؛ لأنك فوضت الجواب إليه ﴾ .

المعروف أن أقسام الطلب ثمانية : الأمر - النهى - النداء - الاستفهام أو السؤال - العرض - التحضيض - التمني - الترجي . والمصنف لم يتعرض لبعض هذه الأقسام ، والحق يقال انه لم يزعم استيفاءها . وإن أمكن القول بأن العرض والتحضيض مردهما إلى الاستفهام ، فالعرض كقولك : ألا تزورنا ، والتحضيض كقولك : هلا أديت الواجب - الأول فيه رفق ولين والآخر فيه عنف وشدة . ثم إن الشائع أن الدعاء هو النداء ، والمصنف جعلهما قسيمين ، وربما أطلق الدعاء على الرجاء . والرجاء يتحقق بأدواته ، وهى : لعل ، وعل ، وعسى ، وحرى ، واخلولق ؛ ويتحقق بالأمر والنهى من الأدنى للأعلى كقوله تعالى (ربنا : إنا سمعنا مناديا ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ، ربنا ؛ فاغفر لنا ذنوبنا ، وكفر عنا سيئاتنا ، وتوفنا

مع الأبرار ، ربنا ؛ وآتنا ما وعدتنا على رسلك ، ولا تخزنا يوم القيامة ، إنك لا تخلف الميعاد) آل عمران ـ الآيتان ١٩٣ و ١٩٤ .

والأصل فى الاستفهام طلب العلم بشيء لم يكن معلوما للسائل بأدوات خاصة ، كما إذا سألتك مثلا : أين تقطن ؟ وأنا لا أعلم مكان بيتك .

والاستفهام يكون لطلب التصور وهو إدراك المفرد ، ويكون لطلب التصديق وهو إدراك وقوع النسبة أو عدم وقوعها ؛ أى مطابقتها للواقع أو عدم مطابقتها . وللتصديق أداتان : (هل) دائما ، (والهمزة) أحيانا ، وللتصور عشر أدوات وهى : الهمزة أحياناً ، ومن ، وما ، ومتى ، وأين ، وأيان ، وكيف ، وكم ، وأى دائما .

والتقرير يقتضى حمل المخاطب على الإقرار والاعتراف بأمر قد استقر عنده ثبوته أو نفيه ، فالأول كقوله تعالى (أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم) على ما ذهب إليه الإمام عبد القاهر (دلائل الإعجاز ص٨٨)، والآخر أى المنفى كقوله تعالى : (ألم نشرح لك صدرك) على وجه ، ففيه حمل على الاعتراف بشرح الصدر ، واستعمال الاستفهام فى التقرير مجاز مرسل علاقته الإطلاق والتقييد . والمشهور أن الاستفهام التقريرى يكون بالهمزة ، ولعلك تعرف أنه يكون بغيرها مثل قولك لصديقك هل تراخيت عن أداء واجبك — عند ظهور التراخى — تريد موافقته عليه والاعتراف به ، وكم عاونتك فى هذا الأمر ـ تريد حمله على الإقرار بالمعاونة ؛ ووراء هذا الرغبة فى الحكم عليه أو كشف أمره أو التشهير به ....

والآية (ألم يأتكم رسل منكم . . .) تكملتها : (قالوا : شهدنا على أنفسنا) وفى هذه التكملة دليل الجواب فكأنهم قالوا : بلى ، أتانا الرسل يقصون وينذرون . ووجود السؤال وجوابه — أو دليل جوابه — هو الذى حمل المصنف على التنبيه إلى أن ظاهر الاستفهام ومعناه التوبيخ .

هذا . والاستفهام فى الآية يحتمل الإنكار ويحتمل التقرير ، وكلاهما يؤدى إلى المقصود ، فالإنكار يتسلط على النفى ومدخوله ، أى يتسلط على عدم إتيان الرسل ، ونفى العدم ينتج عنه التسليم بإتيان الرسل ، والتقرير يعنى الحمل على الاعتراف بالمنفى وهو إتيان الرسل ، ويبقى فى طى هذا كله معنى التوبيخ الذى اعتبره المصنف . والنكت البلاغية لا تتزاحم وقد يعين بعضها بعضاً .

وينقسم الاستفهام إلى محظور ومفوض ، والحظر هو المنع والحجر . والمصنف أتى للمحظور بمثالين من الاستفهام التصورى ولم يتعرض للاستفهام التصديقى . ولعل وجهته أن الاستفهام التصديقى ليس من قبيل المحظور ولا من قبيل المفوض ، فهو ليس من قبيل المحظور ؛ لأنك فى الإجابة عنه لا تجيب ببعض السؤال دون بعض ، وليس من قبيل المفوض ؛ لأنه لا يطلق لك أن تجيب بما تشاء . وفى تقديرنا أن الاستفهام التصديقى من قبيل (المحصور) فإن قولنا مثلا : أنجحت ؟ وهل نجحت ؟ يعنى احتمال نجاحك وعدمه ، وقد حصرتك فى أحدهما ، وأنت عند الجواب تأخذ أحد الجانبين دون الآخر .

نسخ الحكم

﴿ النسخ فى الحكم تبديله برفعه ووضع غيره مكانه . وأصله فى اللغة وضع الشىء مكان غيره إذا كان يقوم مقامه ، ومنه نسخ الكتاب ؛ لأنه وضع غيره موضعه وإقامته مقامه ؛ ومنه قوله — عز وجل — : (ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها) .

والنسخ لا يكون فى الخبر ؛ لأن الخبر إذا تبدل عن حاله بطل ، وفى بطلان قول الصادق وجوب الكذب لا محالة ؛ وليس يجوز للصادق أن يخبر بخبر فيكون ضده ونقيضه صدقاً ؛ إلا أن يكون خبره الأول معلقاً بشرط أو استثناء ، كما وعد الله قوم موسى ـ عليه السلام ـ دخول الأرض

المقدسة إن أطاعوه فى دخولها ، فلما عصوه حرمها عليهم فلم يدخلها أحد منهم ؛ وكما وعد قوم يونس العذاب إن لم يتوبوا ، فلما تابوا كشف عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ؛ وإلى هذا المعنى تذهب الشيعة فى البداء (على قبح هذه اللفظة وبشاعة موقعها فى الأسماع) . فأما الخبر إذا لم يكن معلقا بشرط ولا بشىء مما ذكرنا ، فلا يجوز أن يقع غيره موقعه ، فيكون صدقا ، ولذلك قال الله — عز وجل — : (ما يبدل القول لدى وما أنا بظلام للعبيد) » .

قوله تعالى : (ماننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أومثلها) قرىء « ننسخ » بالفتح والضم من النسخ والإنساخ ، والإنساخ الأمر بالنسخ ، ويمثل له بالوصية للأقارب نسخت بالتوريث ، وعدة الوفاة نسخت من الحول إلى أربعة أشهر وعشرة أيام ، والتوجه إلى المسجد الأقصى بالقدس نسخ بالتوجه إلى المسجد الحرام . و « ننسها » رباعى ، ثلاثيه من النسيان وهو الترك ، والمعنى نمحها من قلبك ، وروى عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ المعنى نتركها لا ننسخها ومنه قوله تعالى : (نسوا الله فنسيهم) ـ التوبة ٦٧ ـ أى تركوه فتركهم . وقرىء (ننسأها) أى نؤخرها ونذهب بها دون بدل ، وقرىء : نُنَسِّها) أى تذهب بحفظها عن القلوب . وقوله : (نأت بخير منها أو مثلها) معناه ـ والله أعلم ـ نأت بآية يكون العمل بها أكثر للثواب والأجر والنفع ، أو أخرى مثلها فى التكليف والثواب والنفع . وقد نزلت الآية فى اليهود أو الكافرين حين قالوا : ما بال محمد يأمر أصحابه بأمر ثم ينهاهم عنه ويأمرهم بخلافه ، أرادوا أن يوهموا أن القرآن من عنده لا من عند الله . قال الإمام الشافعى (الرسالة ص ٣٩ — طبعة القبانى) أنزل الله الكتاب تبيانا لكل شىء وهدى ورحمة ، وفرض فيه فرائض أثبتها ، وأخرى نسخها ؛ رحمة لخلقه بالتخفيف عنهم ، وبالتوسعة عليهم ، زيادة فيما ابتدأهم به من نعمه ، وأثابهم على الانتهاء إلى ما أثبت عليهم جنته والنجاة من عذابه فعمتهم رحمته فيما أثبت ونسخ .

واعلم أن المقصود بالضد وبالنقيض : هو المخالف المباين . وأصل الضد فى اللغة : النظير والكفء والمثل ويطلق على المخالف والمباين ، وهذا الإطلاق الأخير هو الأشهر . والنقيض هو المخالف المباين لا غير . والشائع قولهم : (الضدان لا يجتمعان وقد يرتفعان والنقيضان لا يجتمعان ولا يرتفعان) ومثال الضدين البياض والسواد لا يجتمعان فى شىء وقد يرتفعان ويوجد غيرهما كالاحمرار مثلا ، ومثال النقيضين البياض وغير البياض لأن الشىء لابد أن يكون إما أبيض وإما غير أبيض ، وكذلك الموت والحياة ، والليل والنهار ، كل نقيض الآخر .

وفى الآيات ٢٠-٢٦ من سورة المائدة : قصة قوم موسى ، أمروا أن يدخلوا الأرض المقدسة ، فخافوا أن يلقوا فيها الجبارين وعصوا أمر ربهم ، فحرمها عليهم ، وكتب عليهم التيه . وفى الآية ٩٨ من سورة يونس : حديث عن قوم يونس لما آمنوا كشف الله عنهم عذاب الخزى .

والبداء : من عقائد الشيعة المعروفين بالمختارية أتباع المختار بن أبى عبيد الناجم بالعراق زمن عبد الملك بن مروان . ويقول الشهرستانى فى الملل والنحل : (إنما صار المختار إلى اختيار القول بالبداء ؛ لأنه كان يدعى علم ما يحدث من الأحوال إما بوحى يوحى إليه وإما برسالة من قبل الإمام ، فكان إذا وعد أصحابه بكون شىء وحدوث حادثة فإن وافق كونه قوله جعله دليلا على صدق دعواه ، وإن لم يوافق قال : قد بدا لربكم) ـ عن ناشرى نقد النثر ـ هامش ص ٤٩ .

وقوله تعالى : (ما يبدل القول لدى وما أنا بظلام للعبيد) ؛ فيه تعقيب من الله على المتخاصمين لديه يوم القيامة . والمعنى : لا تطمعوا أن أبدل قولى ووعيدى فأعفيكم مما أوعدتكم به ، وما أنا بظلام للعبيد فأعذب من ليس مستوجبا للعذاب . وظلام بمعنى ظالم أو جىء به بصيغة المبالغة وهى شبيهة بصيغة الجمع لمشاكلة العبيد ، تقول : فلان ظالم لعبده وظلام لعبيده .

المعاريض

(المعارضة فى الكلام المقابلة بين الكلامين المتساويين فى اللفظ . وأصله من معارضة السلعة بالسلعة فى القيمة والمبايعة . وإنما تستعمل المعارضة فى التقية ، وفى مخاطبة من خيف شره فيرضى بظاهر القول ويتخلص فى معناه من الكذب الصراح ؛ وذلك مثل قول بعضهم . وقد سأله بعض أهل الدولة العباسية عن قوله فى لبس السواد ، [فقال] (١): وهل النور إلا فى السواد ، وأراد نور العين فى سوادها ؛ فأرضى السائل ولم يكذب . وكقول شريح ؛ وقد خرج من عند عند الملك فى الساعة التى مات فيها وقد سئل عن حاله ، [فقال](١): تركته يأمر وينهى، فلما فحص عن ذلك قال : تركته يأمر بالوصية وينهى عن النوح . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم — : (رأس العقل بعد الإيمان بالله — عز وجل — مداراة الناس) . ومن المعارضة قول مؤذن يوسف : (أيتها العير إنكم لسارقون) ، وهم لم يسرقوا الصواع ؛ وإنما عنى سرقتهم إياه من أبيه .

وإذا كان الكذب إنما استقبح فى العقل وخرج عن شريعة العدل من أجل أنه مخالف لحقيقة الأشياء فى أنفسها من غير نفع يقصد به — حتى قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : (الكذب مجانب للإيمان) ، وقال الله ـ عز وجل ـ : (ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون) وسمى الكاذبين ظلمة ولعنهم فقال : (ويقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ، ألا لعنة الله على الظالمين) ـ كان الكذب إذا أريد به الصلاح العام والمنفعة الحقيقية مطلقاً ، وقد روى : (لا كذب إلا فى ثلاثة مواطن : كذب فى حرب ، وكذب فى إصلاح بين الناس ، وكذب الرجل لامرأته ليرضيها

---

(١) مابين العاضدتين جاء فى الأصل ، وهو عبء على فصاحة الجملة .

به) . وقال أمير المؤمنين — رضى الله عنه — : (الكذب كله إثم إلا ما نفعت به مسلما أو دفعت به عن دين) . وليس يدخل كذب الإنسان لنفع نفسه وضر غيره فى هذا المعنى ، لأن النفع الحقيقى هو الذى لا يقع به ضرر على وجه .

وقد استعمل الناس أشياء ظاهرها كذب ولهم فيها معان تخرجها عنه ؛ كتسميتهم الصبى بأبى فلان ، وهو لم يستحق أن يكون أبا ، وربما توفى قبل أن يولد له ، وربما ولد له فسمى ولده بغير ما كنى به ؛ فهذا على ظاهره كذب ؛ ولذلك أبته رهبان النصارى وجماعة من أهل الأديان . والذى تقصد به العرب بذلك فى الصغير التفاؤل له بالحياة وطول العمر والولد ؛ وتقصد به فى الكبير وذى الشرف التعظيم له عن التسمية باسمه ، ولذلك ترى السلطان إذا شرف وزيراً من وزرائه أو ولياً من أوليائه كناه . وقد تجعل العرب للرجل الكنية والكنيتين والثلاث على مقدار جلالته فى النفوس ، وممن كان له كنى : أمير المؤمنين وحمزة - رضوان الله عليهما - ومن العرب : عامر بن الطفيل ، وعمرو بن معد يكرب ، وغيرهما ، وذلك معروف فى أخبارهم .

ومما استعملت فيه العرب التفاؤل : تسميتهم أبناءهم « أسداً » تفاؤلا بالشجاعة والنجدة والبسالة ، و « كلبا » تفاؤلا بالحراسة والوفاء والمحافظة ، وأشباه ذلك مما سموا به . ومما قلبوه عن معناه وسموه بضدما يستحقه على سبيل التفاؤل أيضا : « المفازة » وإنما هى مهلكة ، و « السليم » للملسوع وإنما هو التالف . ومما أرادوا به التعظيم له ولرؤسائهم أيضـــا : اللقب كتلقيبهم بذى يزن ، ومكاسر الذئب ، والباقر ، والصادق ، والرضا ، وأشباه ذلك . واللقب يجرى على وجهين : أحدهما بالاشتقاق والتمثيل ، كتلقيبهم الغريض بالغريض لتشبيههم إياه فى بياضه بالإغريض وهو الطلع ، والآخر بالاتفاق كتلقيبهم بالقلبزر والدحاك ؛ وربما لقبوا الإنسان بغير

لسان العرب كتلقيبهم بالإخشيد وبيرجيس . ومما جرى من الألقاب على جهة التعظيم تلقيب الخلفاء أنفسهم ومن رفعوا منزلته من أوليائهم، وذلك مشهور يغني عن تمثيله . ومن اللقب ماجرى على سبيل الذم ، كتلقيبهم بذنب العنز ، ورأس الكلب ، وأنف الناقة قبل أن يمدح بنوه بذلك» .

عن المعارضة : جاء فى كتب اللغة : عارض فلان فلانا بمثل صنيعه أتى إليه مثل ماأتى ومنه المعارضة . وعارض الكتاب قابله . وعرض المتاع للبيع أظهره للراغبين فى شرائه . وعرض بسلعته وعارض بها . والمعراض التورية ، وأصله الستر ؛ يقال : عرفته فى معراض كلامه أى فى لحن كلامه أوفى فحوى كلامه . وقال « أبو على القالى » فى كتاب « البارع » : عرضت له وعرضت به تعريضاً إذا سألت رجلا : هل رأيت فلانا ولم يكن قد رآه ويكره أن يكذب فيقول : إن فلانا ليرى (بصيغة المجهول) فيجعل كلامه معراضا ؛ فرارا من الكذب ، وهذا معنى المعاريض فى الكلام ، ومنه قولهم : إن فى المعاريض لمندوحة عن الكذب .

واستعمال المعارضة فى التقية أى المداراة والحذر ، وفى مخاطبة من لا يؤمن شره ، فالمتكلم يرضى مخاطبه بظاهر القول .

وجعل المصنف من المعارضة قول مؤذن يوسف : (أيتها العير إنكم لسارقون) . والسرقة إذن ليست سرقتهم صواع الملك وإنما هى سرقتهم يوسف من أبيه . وما أظن فى القول معارضة من جهة دعوى المؤذن أنهم سرقوا صواع الملك . والعير : الإبل التى عليها الأحمال ، وقيل : هى قافلة الحمير ، ثم كثر إطلاقها حتى قيل لكل قافلة (عير) ، والمراد أصحابها بدليل خطابها كقول القائل : ياخيل الله اركبى . والصواع (بضم الصاد أو كسرها) إناء للشرب وهو الجام يشرب فيه أو هو الصاع . والصاع

(وقرىء به) مكيال اختلف فى تقديره بين خمسة أرطال وثلث الرطل وبين ثمانية أرطال. ومعيار الرطل الذى لايتخلف — كما قالوا — مقدار أربع حفنات بكفى الرجل المتوسطتين.

ولنفقه حديث الرسول: (الكذب مجانب للإيمان) نقول:

إن الإيمان فى أصله هو التصديق الباطنى، وهو عمل من أعمال القلب، يصفيه، ويجعله مقرا بوحدانية الله، وبأنه متصف بكل كمال، منزه عن كل نقص ومحال، ومقرا بملائكة الله ورسله واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره، وبسائر الغيبيات التى تخفى عن البشر وخاصة مايتصل منها بأمور الساعة. والإيمان إذن يخلص صاحبه من شوائب الدنيا، والكذب من هذه الشوائب، فالكذب - كما قال الرسول الكريم — مجانب للإيمان.

ولنفقه قوله تعالى: (ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون) نشرح سبب النزول. قال تعالى: (ومن الناس من يقول: آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين * يخادعون الله والذين آمنوا، ومايخدعون إلا أنفسهم ومايشعرون * فى قلوبهم مرض، فزادهم الله مرضاً، ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون). — البقرة: ٨/١٠ — نزلت هذه الآيات فى المنافقين الذين نافقوا الرسول والمسلمين بدعوى الإيمان، والمرض الذى فى قلوبهم هو النفاق، زادهم الله منه كلما أنزل على رسوله الوحى فسمعوه كفروا به فازدادوا كفراً إلى كفرهم، فكأن الله هو الذى زادهم ماازدادوه إسناداً للفعل إلى المسبب له، أو كلما زاد الرسول نصرة ازدادوا حسداً وغلا وبغضاً وازدادت قلوبهم ضعفا وجبناً وخوراً، فلهم عذاب أليم — أى مؤلم — بسبب كذبهم، وهو الكذب فى قولهم: آمنا بالله وباليوم

الآخر ، فإن إيمان اليهود بالله ليس بإيمان ؛ لقولهم : عزير ابن الله ، وإيمانهم باليوم الآخر ليس بإيمان ؛ لأنهم يعتقدونه على خلاف صفته ، فكان قولهم : آمنا بالله وباليوم الآخر خبثا مضاعفا وكفرا موجها (عن الكشاف).

وآية الأشهاد تمامها : (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا ! أولئك يعرضون على ربهم ، ويقول الأشهاد ...) - الآية ١٨ من سورة هود . فهؤلاء الذين افتروا على الله كذباً وظلما وادعوا له ولدا وشريكا يعرضون فى الموقف على ربهم ، ويشهد عليهم الأشهاد من الملائكة والنبيين ، فلعنة الله على الظالمين الكاذبين .

ومعنى أن الكذب إذا أريد به الصلاح مطلق: معناه أنه جائز ومباح، نقلا من إطلاق الأسير والسجين أى تخليتهما وإعطائهما الحرية ، ومن إطلاق الناقة أى نزع قيودها وتركها ترعى حيث شاءت — فالحرب قد تستوجب الكذب والخداع طلبا للنصر ، والإصلاح بين الناس قد يستدعى الكذب ولحن الكلام تسكينا للخصومة ، والعلاقة الزوجية قد تتطلب الكذب والمداهنة استبقاء للمودة والعشرة .

ومما هو فى ظاهره الكذب كثير من الكنايات والتسميات ، ولكن الناس درجوا على استعمالها تفاؤلا بمعانيها وتشريفا لأصحابها ،وكلما ارتفعت مكانة المرء فى مجتمعه زادت أسماؤه وكناه .

روى أن أمير المؤمنين على بن أبى طالب كنى « أبا حسن» و«أباتراب» وحمزة عم الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ كنى «أبا يعلى » و « أبا عمارة » وعامر بن الطفيل كنى «أبا على » فى السلام «وأبا عقيل» فى الحرب . وعمرو بن معد يكرب فارس العرب المشهور وصاحب (الصمصام) كنى

« أبا ثور » . وغير هؤلاء كثير ؛ فالصديق كنى أبا بكر ، وعمر بن الخطاب كنى أبا حفص ، وعائشة أم المؤمنين كنيت أم عبدالله باسم ابن أختها أسماء ، وصخر بن حرب كنى أبا سفيان ، وعبد الرحمن بن صخر كنى أبا هريرة ، وامرؤ القيس كنى أبا الحارث ، والنابغة الذبيانى كنى أبا أمامة ، وعمرو بن كلثوم كنى أبا الأسود ، وأعشى قيس كنى أبا بصير ، ولبيد بن ربيعة كنى أبا عقيل ، وأمية بن أبى الصلت كنى أبا عثمان ، وحسان بن ثابت كنى أبا الوليد ، وعمر بن أبى ربيعة كنى أبا الخطاب ، وجرير كنى أبا حزرة ، والفرزدق كنى أبا فراس ، والأخطل كنى أبا مالك ... الخ .

وسموا أسدا وكلبا . وممن سمى أسدا : أسد بن ربيعة ، وأسد بن خزيمة ابن مدركة ، وممن سمى كلبا : كلب بن قضاعة . ومن أسمائهم ، من السباع : أوس (الذئب) ، وكلثوم (الفيل) . ومن الطير : عكرمة (الحمامة) ، والهيثم (فرخ العقاب) ، ومن الهوام : جندب (الجرادة) ، ومازن (بيض النمل) ، ومن النبات : علقمة (واحدة العلقم وهو الحنظل) ، وقتادة (واحدة القتاد وهو شوك) ، ومن الصفات : الصمة (الشجاع) ، ونوفل (العطية) ، والأخطل (من الخطل وهو استرخاء الأذن) — وفى (أدب الكاتب) لابن قتيبة أمثلة أخرى .

وسموا الصحراء «مفازة» مؤملين الفوز فى اجتيازها ، والملدوغ «سليما» تفاؤلا بشفائه وسلامته ، ورفقة السفر « قافلة » تفاؤلا بقفولها أى رجوعها .

ومن الألقاب : ذو يزن وهو ملك من ملوك حمير . ونسب إلى «يزن» واد هناك - لأنه حماه . ومكلم الذئب جد جماعة من خزاعة ، رووا أنه جاء إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - فحدثه أن الذئب أخذ من غنمه شاة فتبعه فلما غشيه بالسيف قال له الذئب : مالك تمنعنى رزقى ! فقال الرجل عجباً لذئب يتكلم ! قال الذئب : أعجب منه أن محمداً ظهر بينكم وأنتم لا تتبعونه وبهذا فخر بنوه وحفدته . والباقر لقب الإمام محمد بن الحسين ولد سنة ٥٧هـ

وأمه فاطمة بنت الحسن ، وتوفى سنة ١١٤ هـ ؛ قيل : لقب بالباقر لتبحره فى العلم . وفى اللسان. لأنه بقر العلم وعرف أصله واستنبط فرعه ، والصادق لقب الإمام جعفر بن محمد الباقر ، والرضا لقب على بن موسى بن جعفر الصادق ، ولقب به أيضا جعفر بن دبوقا المقرىء — والرضا فى الأصل الضامر والمحب — وأشباه هذه الألقاب كثير فالصديق والعتيق لقبان لأبى بكر ؛ لصدقه وجماله ، والفاروق لقب عمر بن الخطاب لأنه فرق بين الحق والباطل ، والحيدرة لقب على بن أبى طالب لحسنه ووضاءته ، أولقوته وشجاعته ، ولقبه العباس بن عبد المطلب [ذا البرقة] يوم حنين - والبرقة الدهشة - ولقبوا شرحبيل بن قرط [ذا الجوشن] وهو الدرع؛ لأنه أول عربى لبسه ، ولقبوا محمد بن إبراهيم المرادى المحدث « الرقاء » .

ومن الألقاب مايشتق من غيره كالغريض من الإغريض وهو الطلع أى ما يبدو من ثمرة النخل أول ظهورها ، ومنها ما يأتى بالاتفاق والصدفة كالقلبزر والدحاك، وهذان اللقبان لا يوجدان فى كتب اللغة وأغلب الظن أنهما من ارتجال المصنف ، أو من مسموعه .

وقد يؤخذ اللقب من اللسان الأعجمى كالإخشيد لقب ملك فرغانة قديماً . وبرجيس اسم كوكب المشترى فى الفارسية ، وهو أكبر كواكب المجموعة الشمسية حجماً ،

وفى العصر العباسى اختار كل خليفة لنفسه لقباً شهر به ، فأبو جعفر (المنصور) ، ومحمد (المهدى) ، وموسى (الهادى) ، وهارون (الرشيد) ، وابناه محمد (الأمين) ، وعبد الله (المأمون) . . . وهكذا . وقلدهم فى هذا سائر الخلفاء والسلاطين والملوك حتى قال من قال فى ملوك الطوائف بالأندلس :

مما يزهدنى فى أرض أندلس ألقاب معتمد فيها ومعتضد

ألقاب مملكة فى غير موضعها كالهر يحكى انتفاخا صورة الأسد

ومن الألقاب ماجرى على سبيل الذم كذنب العنز ورأس الكلب وأنف الناقة . والعنز الأنثى من الماعز ، وذنبها ذيلها ، وفى التلقيب به تحقير لأن فى الذنب إشارة إلى الحطة والاتباع ، ومنه قولهم : أذناب الناس وذنباتهم أى أتباعهم وسفلتهم . ورأس الكلب لقب لشاعر من بنى نمير عاش فى زمن المأمون . وأنف الناقة لقب جعفر بن قريع ، وذلك أن أباه نحر ناقة وقسمها بين نسائه فجاء جعفر ولم يبق من الناقة إلا رأسها وعنقها فقال له أبوه : شأنك بهذا . فأدخل جعفر يده فى أنفها وجرها إلى أمه ، فلقب لهذا : أنف الناقة ، وعير أبناؤه بهذا اللقب إلى أن كان الحطيئة الشاعر فى جوار الزبرقان بن بدر ـ وهو من بنى عمومة أنف الناقة وبينه وبينهم مفاخرات ومنازعات ـ فاستدرجوا الحطيئة إلى جوارهم ، فجعل يهجو الزبرقان ويمدح أنف الناقة ، ومما قال فيهم :

قوم يبيت قرير العين جارهم إذا لوى بقوى أطنابهم طنبا

قوم إذا عقدوا عقداً لجارهم
شدوا العناج وشدوا فوقه الكربا

قوم هم الأنف ، والأذناب غيرهم
ومن يسوى بأنف الناقة الذنبا(١)

فصاروا بعد هذا المديح يفخرون باللقب .

---

(١) لوى : شدوعقد . الأطناب جمع طنب وهو الحبل يشد به طرف المضرب . العناج : عروة فى أسفل الدلو يشدبها الحبل . الكرب : العيدان التى تربط فوق الدلو ويقصد بشدالعناج والكرب توثيق عقد الحماية والجوار

التشبيه

التشبيه من أشرف كلام العرب وفيه تكون الفطنة والبراعة عندهم . وكلما كان المشبه منهم فى تشبيهه ألطف ، كان بالشعر أعرف ، وكلما كان بالمعنى أسبق ، كان بالحذق أليق .

والتشبيه ينقسم قسمين :

(أ) تشبيه للأشياء فى ظواهرها وألوانها وأقدارها . كما شبهوا اللون بالخمر ، والقد بالغصن ، وكما شبه الله النساء فى رقة ألوانهن بالياقوت وفى نقاء أبشارهن بالبيض ، قال تعالى : (كأنهن بيض مكنون) ، وكما قال الشاعر :

كأن بيض نعام فى ملاحفها إذا اجتلاهن قيظ ليله ومد

وقال آخر :

أيا شبه ليلى لاتراعى فإننى لك اليوم من بين الوحوش صديق
فعيناك عيناها ، وجيدك جيدها خلا أن عظم الساق منك دقيق

وقال آخر :

وردت اعتسافا والثريا كأنها على قمة الرأس ابن ماء محلق

(ب) ومنه تشبيه فى المعانى ، كتشبيههم الشجاع بالأسد ، والجواد بالبحر ، والحسن الوجه بالبدر ، وكما شبه الله أعمال الكافرين فى تلاشيها مع ظنهم أنها حاصلة لهم بالسراب الذى إذا دخله الظمآن الذى قد وعد نفسه به لم يجده شيئاً ، وكما شبه من لا ينتفع بالموعظة بالأصم الذى لا يسمع مايخاطب به ،

وشبه من ضل عن طريق الهدى بالأعمى الذى لا يبصر ما بين يديه .

وفى هذا النوع من التشبيه قال الشاعر :

فإنك كالليل الذى هو مدركى
وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

وقال الآخر :

هو البحر من أى النواحى أتيته فلجته المعروف والجود ساحله

وهذا كثير فى القول وفى القرآن والشعر ﴾ .

التشبيه مبنى على الحذق، والحذق مبنى على المعرفة لأنها وسيلته لاكتشاف الغوامض وأداته للغوص على الدقائق . والشعر مبنى على التخييل ، ومن وسائطه التشبيه ، والشاعر أكثر سبحا فى عوالم الحياة وما وراءها ، إذ يعقد المشابهات بين الأشياء التى لا تتصور عقولنا غير الشاعرة وجود صلة بينها ، ويقوم بتجسيد المعانى والخواطر والأفكار التى تتحرك داخل العقل البشرى ، ويخلع صفة الشخوص الإنسانية على غير الناس من الحيوان والنبات — وخاصة الطبيعة — فتراها تتحرك فى شئون الدنيا شخوصاً تعقل وتحس وتشعر وتتألم وترضى وتغضب وتتفتح بالحب والأمل وتنطوى على البغض واليأس . . ألخ ، فالكلمة التى يستدعيها الخيال ليؤدى بها رمزاً ما — لا تمثل نفسها بأكثر مما تمثل الارتباطات الذهنية العجيبة التى استدعيت الكلمة لتمثيلها (راجع كتابنا : قضايا النقد الأدبى الحديث الطبعة الثانية ص١٤٢ وما بعدها) .

والمصنف يقسم التشبيه بالنظر إلى وجه الشبه ، ووجه الشبه هو الأمر الجامع بين طرفى التشبيه ،وقد يدرك بالحس وقد يدرك بالعقل ،فمن الأول قول البحترى :

فى حمرة الورد شيء من تلهبها   وفى القضيب نصيب من تثنيها

وقول الله تعالى فى صفة قاصرات الطرف فى الجنة : (كأنهن الياقوت والمرجان) والياقوت أصفى الأحجار الثمينة لونا ، وقوله فيهن أيضا : (كأنهن بيض مكنون) ، شبههن ببيض النعام المكنون فى الأداحى ، قال المبرد : (والعرب تشبه النساء ببيض النعام تريد نقاءه ونعومة لونه) — الكامل ٢/٤٧ .

ومنه بيت الراعى النميرى : كأن بيض نعام . . ورواه أبو العلاء فى رسالة الغفران :

كأن بيض نعام فى ملاحفها   جلاه طل وقيظ ليله ومد

والملاحف : جمع ملحفة وهى الملاءة وما أشبهها تلتحف بها المرأة ، والليل الومد : أى الشديد الحرارة الساكن الريح .

ومنه بيتا المجنون : أيا شبه ليلى . . وهو يخاطب فيهما البقرة الوحشية أو الظبية ، يشبه عينيها وجيدها بعينى ليلاه وجيدها ، على سبيل التشبيه المقلوب الذى يدعى فيه أن المشبه — بعد جعله مشبها به — أقوى فى وجه الشبه .

ومنه تشبيه ذى الرمة الثريا بابن الماء ، أى الطير الذى يلازم الماء محلقا ، وهو تشبيه مراعى فيه الشكل العام .

ومن التشبيه فى المعانى قول الشاعر فى تشبية الشجاع :

أنت كالليث فى الشجاعة والإقـ
ـدام ، والسيف فى قراع الخطوب

وقول البحترى فى الكريم الجواد :

هو بحر السماح والجود ، فازدد   منه قربا تزدد من الفقر بعدا

وقول المتنبي في حسن الوجه :

كالبدر من حيث التفت رأيته يهدى إلى عينيك نوراً ثاقبا

ويقول الله تعالى فى صفة أعمال الكافرين (والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء ، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه)ـ سورة النور الآية ٣٩ . والسراب: مايرى فى الصحراء عند شدة الحر كأنه ماء وليس به . والقيعة : المنبسط المستوى من الأرض. وقد أوضح التشبيه معنى ضياع الآمال وخيبة المؤملين ، فأعمال الكافرين التى يحسبونها نافعة عند الله لا تنفع، وإنما تلقى خلاف ما قدروا . كالسراب يراه السائر وقد غلبه العطش فيحسبه ماء فيأتيه فلا يجد ما ترجاه .

وفى تشبيه من ضلوا السبيل جاء أكثر من آية . منها قوله تعالى: (ومنهم من يستمعون إليك ، أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون * ومنهم من ينظر إليك ، أفأنت تهدى العمى ولو كانوا لا يبصرون) ـ سورة يونس ـ الآيتان ٤٢ و ٤٣ . وقوله تعالى : (الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا وهم بالآخرة هم كافرون * أولئك لم يكونوا معجزين فى الأرض وما كان لهم من دون الله من أولياء يضاعف لهم العذاب ، ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون * أولئك الذين خسروا أنفسهم ، وضل عنهم ما كانوا يفترون * لا جرم أنهم فى الآخرة هم الأخسرون * إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون * مثل الفريقين كالأعمى والأصم ، والبصير والسميع . هل يستويان مثلا ، أفلا تذكرون) ـ سورة هود ـ الآيات ١٩ / ٢٤ . وقوله تعالى : (إنك لا تسمع الموتى ، ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين * وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم ، إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون) ـ سورة النمل ـ الآيتان ٨٠ و ٨١ . وقوله تعالى : (فإنك لا تسمع الموتى ، ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين * وما أنت بهادى العمى

عن ضلالتهم . إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون) ـ سورة الروم ـ الآيتان ٥٢ و٥٣ .

وجعل المصنف من التشبيه فى المعانى بيت النابغة الذبيانى :

فإنك كالليل الذى هو مدركى وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

وجعله ابن قتيبة مما سبق به النابغة ولم ينازعه فيه أحد (الشعر والشعراء ١/١٧١) وجعله الإمام عبد القاهر من التمثيل الذى يحتاج إلى الفكر الناشىء عن دقة المعنى ولطفه وترتيب أجزائه (أسرار البلاغة ١١٨).

وفى البيت ـ كما ترى ـ يشبه الشاعر الملك النعمان بالليل الذى يعم الكون ولا يخلو منه مكان ولا يستطيع أحد الانفلات منه مهما اتسعت أمامه مذاهبه؛ يقصد بهذا أن يصور سطوة النعمان وأنه لا يفوته هارب منه وإن صار إلى أقصى الأرض ، ولما كان المقام مقام خوف ورهبة اختار تشبيهه بالليل ـ دون النهار مع اشتراكهما فى الإفاضة العامة على الكون ـ لأن فى الليل وحشة يخشى من ورائها وقوع الشر .

وهذا البيت جعله بعض البلاغيين مثالا للمساواة ـ وعرفوها بأنها تأدية أصل المراد بلفظ مساو له لا ينقص ولا يزيد ـ ولا يقدح فى المساواة حذف جواب الشرط من البيت ، لأن حذفه اقتضته الصنعة الإعرابية دون الافتقار إليه فى تأدية أصل المراد ، ولو ذكر الجواب لكان فى البيت إطالة دون داع .

اللحن والتعريض

﴿ وأما اللحن فهو التعريض بالشىء من غير تصريح ، أو الكناية عنه بغيره ، كما قال الله عز وجل :ـ (ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم، ولتعرفنهم فى لحن القول) ﴾ .

ونقول : التعريض فى اللغة خلاف التصريح ، والتعريض فى اصطلاح أهل البلاغة استعمال الكلام فى معناه ، ملوحا به إلى غير معناه . فالمعنى التعريضى مقصود من الكلام سياقا ودلالة ، وعلى هذا يمكن أن يتأتى مع الحقيقة (وهى استعمال اللفظ فيما وضع له) ، ومع المجاز (وهو استعمال اللفظ فى غير ما وضع له لعلاقة مع قرينة تمنع إرادة المعنى الأصلى) ، ومع الكناية (وهى استعمال اللفظ فى غير ما وضع له لعلاقة مع قرينة لا تمنع إرادة المعنى الأصلى) .

ومن أمثلة التعريض مع الحقيقة قولك تعرض بشخص ممقوت : لست أتكلم أنا بسوء فيمقتنى الناس ، وقول صاحب الحاجة لمن نشد منه العون : جئتك لأسلم عليك ، يعرض بهذا إلى أنه طالب عطاء . ومن أمثلة التعريض مع المجاز قولك تعرض بعدم وفاء المخاطب بالعهد : أنا معتصم بحبل الله ، ومنها ماذكره السكاكى فى (مفتاح العلوم) : آذيتنى فستعرف ، وأنت لا تريد المخاطب بل تريد إنسانا معه ، والعلاقة اللزوم ، إذ أنه يلزم من تهديد المخاطب لإيذائه تهديد كل مؤذ مثله . ومن أمثلة التعريض مع الكناية قولك تعرض بنفى صفة الإسلام عن المؤذى : (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده) ، فمعناه الصريح حصر الإسلام فيمن لا يؤذى ، ومعناه الكنائى نفى صفة الإسلام عن المؤذى وهو المعنى المعرض به ، وسمى البلاغيون هذا اللون (الكناية العرضية) — بضم العين — والعرضية والتعريضية بمعنى ، وفى كلتيهما إمالة الكلام إلى عرضه أى إلى فحواه والمقصود منه .

وقول المصنف : (اللحن التعريض بالشيء من غير تصريح أو الكناية عنه بغيره) فيه إشارة إلى أن التعريض كنائى ، وقد عرفت أنه ليس كذلك دائما .

وقد أورد « ابن حجة الحموى » (٨٣٧ هـ) فى بديعياته « التعريض »

ضربا من الكناية ،وعرفه فى (خزانة الأدب وغاية الأرب) بقوله : (هو أن يكنى المتكلم بشيء عن آخر لا يصرح به ليأخذه السامع لنفسه ويعلم المقصود منه) كقولك لبخيل : ما أقبح البخل ! فيعلم أنك أردت أن تقول له : أنت بخيل .

وأورد « ابن رشيق القيروانى » (٤٥٩ هـ) فى كتابه (العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده) من ألوان البديع « الإشارة »،وهى عنده لمحة دالة واختصار وتلويح يعرف مجملا ومعناه بعيد عن ظاهر لفظه ، وهى ضروب ، منها « اللحن » ، وهو كلام يعرفه المخاطب بفحواه وإن كان غير وجهه ، ويسمى « المحاجاة » لدلالة الحجى عليه ، كقول الشاعر : يحذر قومه :

خلوا على « الناقة الحمـــراء » أرحلكم
و « البازل الأصهب » المعقول فاصطنعوا

إن « الذئاب » قد اخضرت براثنها
والناس كلهم « بكر » إذا شبعوا

أراد بالناقة الحمراء الفلاة،وبالبازل الأصهب الأرض الصلبة،وبالذئاب العدو ، وباخضرار البراثن تمتعهم بالخصب والكلأ ، وبكر هو بكر بن وائل عدو القوم ، والناس كلهم مثل بكر إذا شبعوا طلبوا الغزو .

واستأنس المصنف فى بيان اللحن بالآية الكريمة : (ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم فى لحن القول) وهذه الآية فى المنافقين، وفيها يؤكد الله — سبحانه — لرسوله أنه لن يخفى عليه بعد الآن لحنهم ، وكانوا يلحنون بالقول نفاقاً ، أى يميلون به إلى نحو من الأنحاء أو أسلوب من الأساليب كالتعريض والتورية بحيث يفهمه نظراؤهم فى

النفاق فيخفى على من عداهم . وقيل للمخطىء لاحن ؛ لأنه يعدل بالكلام عن الصواب — عن الكشاف .

وجوه التعريض :

﴿ والعرب تفعل ذلك لوجوه ، وهى تستعمله فى أوقات ومواطن ، فمن ذلك ما استعملوه للتعظيم ، أو للتخفيف ، أو الاستحياء . أو للبقيا ، أو للإنصاف ، أو للاحتراس .

فأما ما يستعمل من التعريض للإعظام فهو أن يريد مريد تعريف من فوقه قبيحا إن فعله ، فيعرض له بذكر ذلك من فعل غيره ويقبح له ما ظهر منه — فيكون قد قبح له ما أتاه من غير أن يواجهه به ؛ وفى ذلك يقول :

ألا رب من أطنبت فى ذم غيره لديه على فعل أتاه على عمد

ليعلم عند الفكر فى ذاك أنما نصيحته فيما خطبت به قصدى ﴾

فى تقديرى أن البيتين تقوية لما قاله عن التعريض للإعظام وليس فيهما شاهد ومثال ، ولعل فى قصص القرآن مثالا لما يقوله الواعظ للبغاة ومن إليهم ؛ كقوله تعالى : (واضرب لهم مثلا رجلين ، جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب ...) الآيات ٣٢— ٤٤ من سورة الكهف ، وقوله تعالى : (إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم . . .) الآيات ٧٦—٨٣ من سورة القصص .

﴿ وأما التعريض للتخفيف فهو أن تكون لك إلى رجل حاجة فتجيئه مسلما ولا تذكر حاجتك ، فيكون ذلك اقتضاء له وتعريضاً بمرادك منه ، وفى ذلك يقول :

أروح لتسليم عليك وأغتدى وحسبك بالتسليم منى تقاضيا

وأما التعريض للاستحياء فكالكناية عن الحاجة بالنجو والعذرة ، والنجو المكان المرتفع والعذرات الأفنية ، وبالغائط وهو الموضع الواسع ، فكنى عن الحاجة بالمواضع التى تقصد لوضعها فيها . وكما كنى عن الجماع بالسر ، وعن الذكر بالفرج وإنما الفرج ما بين الرجلين ، وكما تقول لمن كذب : ليس هذا كما تقول ﴾

ومن أمثلة التعريض للاستحياء قوله تعالى :(وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً) النساء الآية ٤٣ ، والمائدة الآية ٦ ، والشاهد فى (الغائط) كما أشار المصنف ، وفى (لامستم النساء) كناية عن الجماع فى رأى الإمام أبى حنيفة . وقوله تعالى (ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء أو أكننتم فى أنفسكم ، علم الله أنكم ستذكرونهن . ولكن لا تواعدوهن سرا) البقرة : الآية ٢٣٥ ؛ وفى الكشاف : وقع السر كناية عن النكاح الذى هو الوطء لأنه مما يسر ، ثم عبر به عن النكاح الذى هو العقد لأنه سبب فيه . وقال الأعشى :

ولا تقربن من جارة ، إن سرها
عليك حرام ، فانكحن أو تأبدا

أى فتزوج أو اعتزل النساء ، وفى هذا تشبيه للاعتزال بتأبد الوحش أى نفوره من الإنس .

ومن أمثلة التعريض للاستحياء قوله تعالى : (والذين هم لفروجهم حافظون)ـ المؤمنون (الآية ٥) وقوله تعالى : (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم .. وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن) النور ـ الآيتان ٣٠ ، ٣١ .

﴿ وأما التعريض للبقيا ، فمثل تعريض الله ـ عز وجل ـ بأوصاف

المنافقين وإمساكه عن تسميتهم إبقاء عليهم وتألفاً لهم ، ومثل تعريض الشعراء بالديار والمياه والجبال والأشجار ، بقيا على ألافهم وصيانة لأسرارهم وكتماناً لذكرهم ، ومنه قول الشاعر :

أيا أثلات القاع من بطن توضح
حنيني إلى أفيائكن طويل

ومنه قول الآخر :

ألا يا سيالات الرحائل باللوى   عليكن من بين السيال سلام

وهذا باب تكثر فيه الشواهد من الشعر وغيره . وقد صرح بعض الشعراء عن المراد به فقال :

أدور ، ولولا أن أرى أم جعفر
بأبياتكم ما درت حيث أدور

تكثر فى القرآن الكريم أمثلة التعريض بالمنافقين دون ذكر أسمائهم، وإنما يذكر القرآن أوصافهم من نحو المجادلة فى الوحى والإعراض عن العظة وإغفال العقل وتكذيب ما اتضح وظهر ... إلخ .

والبيت الأول ليحي بن طالب الحنفى كما فى معجم البلدان . والقاع وتوضح : موضعان . والأثلات جمع أثلة وهى السمرة وهى شجرة جيدة الخشب صغيرة الورق قصيرة الشوك تنبت فى أرض الجزيرة العربية ، وقيل : الأثلة شجرة من العضاه طويلة مستقيمة الخشبة تعمل منها القصاع والأقداح . والأفياء : جمع فىء ، وهو الظل أوما كان شمسا فينسخه الظل . والشاعر يعلن عن حنينه إلى أفياء الأثلات وهو يعنى حنينه إلى قطانها .

والبيت الثانى لم أعرف قائله . والسيالات جمع سيالة (وزان سحابة) ،

وهى شجرة الخلاف بلغة اليمن ، أو هى ما طال من السمر ، أو هى شجرة ذات شوك أبيض طويل إذا نزع خرج منه ما يشبه اللبن ، والسيال اسم هذا النوع من الشجر . والرحائل : أظنها جمع رحولة وهى الراحلة . والشاعر يلقى السلام على سيالات اللوى من دون سائر السيال وهو يقصد تحية سكانها .

والبيت الثالث للأحوص ، من جملة أبيات شبب فيها بأم جعفر صراحة ، وهى امرأة من بنى خطمة ، وفيها يقول (على رواية الأغانى : ٦/٢٥٤) :

لقد منعت معروفها أم جعفر ... وإنى إلى معروفها لفقير

وقد أنكرت - بعد اعتراف - زيارتى ... وقد وغرت فيها على صدور

أدور ولولا أن أرى أم جعفر ... بأبياتكم ما درت حيث أدور

أزور البيوت اللاصقات ببيتها ... وقلبى إلى البيت الذى لا أزور

وما كنت زوارا ، ولكن ذا الهوى ... إذا لم يزر لابد أن سيزور

أزور على أن لست أنفك كلما ... أتيت عدوا بالبنان يشير

ورواها المبرد (الكامل ١/٣٣٣) والمرزبانى (الموشح ٢٥٨) بنقص واختلاف فى بعض الكلم وترتيب الأبيات . ومن أجلها استعدى عليه « أيمن » أخو أم جعفر والى المدينة - أو الخليفة عمر بن عبد العزيز فى بعض الخبر - فربطهما فى حبل ودفع إليهما سوطين ليتجالدا ، وكانت الغلبة للأخ .

﴿ وأما التعريض للإنصاف فكقول الله — عز وجل — : (وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين) ﴾ .

ومدخل هذه الآية قوله تعالى : (قل : ادعوا الذين زعمتم من دون الله، لا يملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير ◦ ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ، حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الحق ، وهو العلى الكبير ◦ قل من يرزقكم من السموات والأرض ؟ قل : الله . وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين) سبأ : ٢٢/٢٤. فقد ألزمهم حجة التوحيد ، وأبان عن عجز أربابهم ، وقطع عليهم الأمل فى شفاعة هذه الأرباب ، وقررهم بأن الله هو رازقهم من السموات والأرض ، وهم مقرون بهذا بقلوبهم إلا أنهم ربما أبوا أن يتكلموا به ؛ لأن الذى تمكن فى صدورهم من العناد وحب الشرك ألجم أفواههم عن النطق بالحق مع علمهم بصحته . يقول الزمخشرى فى الكشاف : بعد هذا الإلزام والإلجام إن لم يزد على إقرارهم بألسنتهم لم يتقاصر عنه أمره — سبحانه وتعالى — لرسوله أن يقول لهم : (وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين) ، ومعناه : أن أحد الفريقين من الذين يوحدون بالعبادة الرازق من السموات والأرض ، ومن الذين يشركون به الجماد الذى لا يوصف بالقدرة ـ لعلى أحد الأمرين من الهدى أو الضلال ؛ وهذا من الكلام المنصف الذى يقول كل من سمعه ـ موافقا كان أو مخالفا ـ للمخاطب به : لقد أنصفك صاحبك . وبعد كل ما تقدم دلالة غير خفية على من هو من الفريقين على الهدى ومن هو فى الضلال المبين، ولكن التعريض أنضل بالمجادل إلى الغرض وأهجم به على الغلبة مع قلة شغب الخصم وفل شوكته بالهوينى . هذا ، وفى التعبير بـ (على) مع الهدى و (فى) مع الضلال ـ إشارة إلى استعلاء المهتدى صاحب الحق وإلى انغماس

الضال فى ضلالته وارتباكه فى ظلمات هواه ؛ فلا يدرى أين ـ ولا كيف ـ يتوجه؟ ، والله أعلم .

﴿ ومنه قول حسان بن ثابت فى مناضلته بعض من هجا رسول الله ـ عليه السلام ـ :

أتهجـــوه ولست له بكفء　　فشركما لخيركما الفـــداء ﴾

وهذا البيت من قصيدة طويلة لحسان بن ثابت ، مناسبتها أن قريشاً بعد صلح الحديبية أدركت أنها لم تشتف من النبى — ﷺ — وصحبه بانتصار حربى ، فدفعت شعراءها إلى هجاء النبى والتشهير بالدين الجديد ، ومن هؤلاء الشعراء أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وكان لابد من مواجهة السلاح القولى بسلاح مثله . فندب النبى حسان بن ثابت ليدفع عنه وعن الدين ، فكانت هذه القصيدة ، وفيها يهجو أبا سفيان هذا ـ قبل إسلامه ـ فهو يقول له :

ألا أبلغ أبا سفيان عنى　　فأنت مجوف نخب هواء
بأن سيوفنا تركتك عبداً　　وعبد الدار سادتها الإماء
هجوت محمداً فأجبت عنه　　وعند الله فى ذاك الجزاء
أتهجوه ولست له بكفء　　فشركما لخيركما الفـــداء
هجوت محمـــداً براً حنيفاً　　أمـــين الله شيمته الوفاء
أمن يهجو رسول الله منكم　　ويمدحه وينصره سواء
فإن أبى ووالدتى وعرضى　　لعرض محمد منكم وقاء
لسانى صارم لا عيب فيه　　وبحرى ما تكدره الدلاء

قوله : فأنت مجوف نخب هواء ؛ أى فارغ القلب والعقل والشجاعة ـ وروى هذا الشطر « مغلغلة فقد برح الخفاء » والمغلغلة الشديدة الحرارة ، وبرح الخفاء بمعنى ذهب التستر أو بمعنى ظهر السر — وعبد الدار بطن من

قريش كانت لهم السقاية واللواء والحجابة والرفادة، وقوله: سادتها الإماء فيه إشارة تاريخية لما حدث لهم يوم أحد، ذلك أن اللواء أخذه منهم طلحة ابن أبي طلحة فقتله سيدنا على ثم أخذه عثمان بن طلحة فقتله حمزة، ثم سعيد بن أبي طلحة فقتله سعد بن أبي وقاص، ومازال اللواء يتنقل حتى أخذه عبد لهم يسمى «صوابا» فقتل فأخذته امرأته. والعرض هنا بمعنى النفس. والوقاء: ما يتوقى به المكروه. والدلاء: جمع دلو - يفتخر بقوة بيانه واتساع شعره.

﴿ وأما التعريض للاحتراس فهو ترك مواجهة السفهاء والأنذال بما يكرهون وإن كانوا لذلك مستحقين؛ خوفاً من بوادرهم وتسرعهم، وإدخال ذلك عليهم بالتعريض والكلام اللين ﴾

ونمثل له بنحو (أنا أعتقد وجوب الصلاة) يخاطب به من يتركها ويعتقد عدم وجوبها؛ تعريضاً له بأنه كافر أو خارج على الجماعة. ونحو (خير الناس أنفعهم للناس) يخاطب به من يضر الناس ويؤذيهم؛ تعريضاً له بسوء مسلكه.

﴿ وفى ذلك يقول الله — عز وجل — (ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم)، وقال لموسى وهارون فى فرعون: (فقولا له قولا ليناً لعله يتذكر أو يخشى) ﴾.

والآية الأولى نهى عن السب وهو الشتم بالقبيح. والذين يدعون من دون الله: المراد بهم أرباب الكافرين وآلهتهم. وعدوا أى عدواناً وظلماً. وبغير علم: أى على جهالة بالله وبما يجب أن يذكر به. كان المسلمون يسبون آلهة الكافرين وأربابهم، فنهى القرآن عن ذلك لئلا يدفع الكافرون إلى سب الله — سبحانه وتعالى — قال الزمخشرى فى الكشاف: فإن قلت: سب الآلهة حق وطاعة، فكيف صح النهى عن المعاصى؟. وأجاب هو عن هذا

التساؤل بقوله : " رب طاعة علم أنها تكون مفسدة فتخرج عن أن تكون طاعة ، فيجب النهى عنها لأنها معصية لا لأنها طاعة ، كالنهى عن المنكر ؛ هو من أجل الطاعات ، فإذا علم أنه يؤدى إلى زيادة الشر انقلب معصية ووجب النهى عن ذلك النهى ، كما يجب النهى عن المنكر .

والآية الثانية دعوة لموسى وهارون أن يعرضا على فرعون هذا الدين عرضا فيه رفق ولين ، ويتلطفا فى دعوته إليه ، ويستغلا منطق الإقناع الهادىء ، على رجاء أن يتذكر فرعون ويتأمل فيذعن للحق ، أو أن يخشى عاقبة الإعراض ومغبة الهلاك فيراجع نفسه .

الرمز

« وأما الرمز فهو ما أخفى من الكلام . وأصله الصوت الخفى الذى لا يكاد يفهم ، وهو الذى عناه الله — عز وجل — بقوله : (قال : رب اجعل لى آية . قال : آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزاً) .

وإنما يستعمل المتكلم الرمز فيما يريد طيه عن كافة الناس والإفضاء به إلى بعضهم ، فيجعل للكلمة أو للحرف اسما من أسماء الطير أو الوحش أو سائر الأجناس أو حرفا من حروف المعجم ، ويطلع على ذلك الموضع من يريد إفهامه ، فيكون ذلك قولا مفهوما بينهما مرموزا عن غيرهما ، وقد أتى فى كتب المتقدمين من الحكماء والمتفلسفين من الرموز شىء كثير ، وكان أشدهم استعمالا للرمز أفلاطون .

وفى القرآن من الرموز أشياء عظيمة القدر جليلة الخطر ، وقد تضمنت علم ما يكون فى هذا الدين من الملوك والممالك والفتن والجماعات ،

ومدد كل صنف منها وانقضائه ، ورمزت بحروف المعجم وبغيرها من الأقسام كالتين والزيتون والفجر والعاديات والعصر والشمس ، واطلع على علمها الأئمة المستودعون علم القرآن . ولذلك قال أمير المؤمنين - رضى الله عنه : (ما من مائة تخرج إلى يوم القيامة إلا وأنا أعلم قائدها وناعقها وأين مستقرها من جنة أو نار) . وروى عن ابن عباس - رضى الله عنه - أنه سئل عن: ألم ، وحم ، وطسم ، وغير ذلك مما فى القرآن من هذه الحروف ، فقال : (ما أنزل الله كتاباً إلا وفيه سر . وهذه أسرار القرآن) ؛ وهى حروف الجمل ، ومنها كان «على» يعلم حساب الفتن. فهذه الرموز هى أسرار آل محمد . ومن استنبطها من ذوى الأمر وقف عليها ، فعلم جليل ما أودعهم الله إياه من الحكمة ».

جاء فى كتب اللغة : الرمز الحركة ، وتكون بالشفتين ، وبالعينين ، وبالحاجبين ، وبالرأس ، وباليد ، وبغيرها . ويطلق الرميز على الرزين ، ويقال للناقة إذا أصابها ثقل فلا تكاد تمشى لسمنها: قد أرمزت ، ثم اتسعوا فيه فأطلقوه على كل حركة ، فالرميز الكثير الحركة ، والراموز البحر ، والرمازة الكتيبة الكبيرة التى ترتمز أى تضطرب وتتحرك من جوانبها ، وقالوا : ارتمز فلان من الضربة وترمز منها أى اضطرب ، وترمز القوم وارتمزوا تحركوا فى مجالسهم لقيام أو خصومة ... ألخ .

وأورد «ابن حجة الحموى» الرمز ضربا من أضرب الإشارة ، ومثل له بقول أحد القدماء يصف امرأة سباها وقتل زوجها :

عقلت لها من زوجها عدد الحصا　　　مع الصبح أو مع جنح كل أصيل

يرمز إلى أنه لم يعطها بزوجها عقلا — أى دية — إلا الهم ، الذى يدعوها إلى تعداد الحصا صبحا وأصيلا ، فالمهموم يشغل نفسه بذلك أو نحوه .

وجاءت آية الرمز فى قصة زكريا — عليه السلام — حينما بشرته

الملائكة بابنه يحيى ، ودهش زكريا أن يكون له غلام وقد ناهز هو وامرأته مائة عام ، وطلب آية — أى علامة — يعرف بها حبل امرأته ، فقيل له: آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزاً ، أى لا يجد من نفسه القدرة على مخاطبة الناس إلا عن طريق الرمز .

وما يشير إليه المصنف من اصطناع أسماء الطير والوحش وحروف المعجم رموزاً : نجده اليوم فى اللغة السياسية التى تصطنعها كل دولة لنفسها، صيانة لأسرارها وحياطة لأمنها ، تتخاطب بها مع بعثاتها السياسية لدى الدول الأخرى .

والمصنف — كما ترى — محكوم بسلطان العقيدة الشيعية ، فهو يتبنى وجهة غلاة الشيعة ، الذين يرون فى القرآن الكريم وكلماته وحروفه رموزاً وأسراراً ، فيها تأويل أحداث الدنيا ، ويرون هذا التأويل وقفاً على أئمتهم .

ومن وسائلهم فى هذا (حساب الجمل) لكل حرف نظير من الأرقام على الوجه الآتى :

ا	ب	ج	د	ه	و	ز
١	٢	٣	٤	٥	٦	٧
ح	ط	ى	ك	ل	م	ن
٨	٩	١٠	٢٠	٣٠	٤٠	٥٠
س	ع	ف	ص	ق	ر	ش
٦٠	٧٠	٨٠	٩٠	١٠٠	٢٠٠	٣٠٠
ت	ث	خ	ذ	ض	ظ	غ
٤٠٠	٥٠٠	٦٠٠	٧٠٠	٨٠٠	٩٠٠	١٠٠٠

وعلى من يستنطق الحروف أن يعمل فروضه فى أرقامها ، جمعا وطرحا، وتماثلا وتقابلا . وموافقة ومبادلة ، وعولا وردا ، ومناظرة بأحوال الأبراج والمدارات والنجوم ... الخ ؛ ليخرج من هذا كله بدلالة هى — فى الغالب — دلالة فلكية على الأحداث وأحوال الناس .

وقد تناول البلاغيون الرمز كأسلوب كنائى ، فاعتبروا رمزاً : الكناية التى قلت وسائطها وكان فيها نوع خفاء دون تعريض (مفتاح العلوم للسكاكى)، ومثلوا لها بنحو قولهم : فلان عريض الوسادة ، كناية عن بلادته ، وفلان رسول الشر ، كناية عن مزاحه .

وتناول البلاغيون الرمز كصنعة بديعية حين يريد المتكلم إفهام المخاطب شيئا لا يصرح له به وإنما يخفى أمره فى كلامه فيرمز له فى ضمنه رمزاً يهتدى به المخاطب إلى استخراجه (بدائع القرآن لابن أبى الأصبع) .

وتناول البلاغيون الرمز كوسيلة للتعمية فى الصنعة البديعية، ولا تكون مقبولة إلا بحيث يقبلها الذوق ويكون للقول المعمى معنى ويرى قائماً بحسن تركيبه (كنز الأتما فى كشف المعمى لبديع الزمان الهمذانى) . ومثلوا لهذا المعمى بقوله تعالى:(ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها) فاستخرجوا منه اسم «هود» عن طريق التصحيف ، وقوله تعالى:(نخلق فسوى) فاستخرجوا منه اسم « يوسف » عن طريق القلب — يوسف مقلوب فسوى — ولعل هذا أقرب لما ذكره المصنف .

هذا فى القديم . أما فى الحديث فالرمز فى الأدب يعنى استرسال الإيحاء بهواجس النفس فى ألفاظ غامضة مبهمة وتجسيم الأفكار المجردة وتحريكها فى أحداث . ولما كانت وظيفة الأدب الأولى هى توليد المشاركة الوجدانية بين المنشىء والمتذوق فهذا الأدب عند الرمزيين يسعى إلى نشر العدوى النفسية ونقلها من المنشىء إلى المتذوق ، ولما كانت اللغة رموزاً للعالم الخارجى والعالم النفسى وكانت وظيفتها إثارة الصور (الرموز) المماثلة — قال الأدباء

الرمزيون : إن معطيات الحواس تتداخل وتتبادل (عن كتابنا: قضايا النقد الأدبى الحديث - ط٢ص١٠٥)، وهدفهم من هذا: الانعتاق من قيود المعقول والمحدود توصلا إلى أغوار الشعور الإنسانى ، ووسيلتهم إلى هذا إلقاء الضباب الكثيف من اللفظ حول المعنى بما يجهد الفكر فى تقصى ماوراءه، عن طريق استعمال غير المألوف من الوصف والمجاز ، وغموض الإشارة ، والإبعاد فى الدلالة ، واستغلال الإيقاع الصوتى . ولهذا ألفنا منهم أن يقولوا : الشهوة الحمراء —والطعم الرمادى— واخضر الليل — وتلمث فى رأسى الفكر .

الوحى

((وأما الوحى فإنه الإبانة عما فى النفس بغير المشافهة ، على أى معنى وقعت ، من إيماء ، ورسالة ، وإشارة ، وكتابة . ولذلك قال الله - عز وجل : (ما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا) . وهو على وجوه كثيرة : فمنه «الإشارة» كما قال الله - عز وجل :-(فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا) . ومنه « الوحى المسموع من الملك » كقول الله — عز وجل : - (إن هو إلا وحى يوحى علمه شديد القوى) . ومنه «الوحى فى المنام» وهو الرؤيا الصحيحة ، كما قال الله تعالى : (وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه).ولذلك قال رسول الله ﷺ :(الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة). ومنه «الإلهام» ،كما قال الله- عز وجهه: (وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتاً) ، أى ألهمها . ومنه «الكتاب» ؛ يقال منه وحيت الكتاب، إذا كتبته ، قال الشاعر :

ماهيج الشوق من أطلال دارسة أضحت خلاء كوحى خطه الواحى

ويقال منه ، وحيت أحى ، كما يقال وفيت أفى . ومن الوحى « الإشارة

باليد» و «الغمز بالحاجب» و «الإيماض بالعين»(١) كما قال الشاعر :

وتوحى إليه باللحاظ سلامها   مخافة واش حاضر ورقيب

وقال آخر :

أشارت بطرف العين ، خيفة أهلها   إشارة محزون ، ولم تتكلم
فأيقنت أن الطرف قد قال مرحباً   وأهلا وسهلا بالحبيب المسلم

وقال آخر :

أشارت بأطراف كأن بنانها   أنابيب در قمت بعقيق
وقالت : كلاك الله فى كل مشهد   مكانك من قلبي مكان شقيق »

جاء فى معاجم اللغة : الوحى : الإشارة ، والإيماء ، والكتابة ، والمكتوب ، والكتاب ، والإلهام ، والرسالة ، والكلام الخفى ، وكل ما ألقيته إلى غيرك ليعلمه ، والصوت يكون فى الناس وغيرهم . وأوحى إليه بعثه وألهمه . واستوحاه استلهمه . وغلب استعمال الوحى فيما يلقى إلى الأنبياء من عند الله . فاللغويون يتسعون فى معنى الوحى فيطلقونه على المشافهة (الكلام الخفى والصوت) وعلى غير المشافهة ، والمصنف يقصره على غير المشافهة فلعله فى هذا يجتهد أو يرسى اصطلاحاً له ، ولهذا استشهد بالآية (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا) والآية كاملة — سورة الشورى . الآية ٥١ — فيها تصر تكليم الله البشر على ثلاثة أوجه : الوحى ، وصورة التكليم من وراء حجاب ، وعن طريق إرسال الرسل . ووقع الوحى بأمرين : بالمنام وبالإلهام ، فالمنام هو كما أوحى إلى ابراهيم ذبح ولده عليهما السلام — وإلى أم موسى أن ترضعه ، والإلهام هو القذف فى القلب كما أوحى الله إلى داود

---

(١) ننبه إلى اشتراك الرمز والوحى فى هذه المعانى — وازن بين معانى الرمز ومعانى الوحى التى نشرحها بعد قليل .

فى صدره (عن مجاهد) .والتكليم — أوصورته — هو كما كلم الله موسى ويكلم الملائكة . وإرسال الرسل هو كما كلم الله الأنبياء عن طريق الملائكة ، كما وكلم أمم الأنبياء على ألسنتهم .

وكلمة « وحيا » فى الآية فى موضع المفعول المطلق المبين للنوع ، والتقدير : وما كان لبشر أن يكلمه الله الا كلاما وحيا أى كلاما خفيا ، ويجوز أن تكون فى موقع الحال بتأويل المصدر ، والتقدير : وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا موحيا ، وهذا الإعراب — الأخير — أليق بكلام المصنف .

والوحى على وجوه كثيرة :

فمن الوحى (الإشارة) كما فى قصة زكريا — عليه السلام — حين بشرته الملائكة بيحيى ، وجعل الله له آية ألا يكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزاً (ارجع إلى ص ٤٥) . فلما وقعت الآية خرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا ، عن مجاهد : أشار إليهم ، وعن ابن عباس: كتب لهم على الأرض .

ومن الوحى (السماع من الملك) كقوله تعالى : (إن هو إلا وحى يوحى)، قصر ما ينطق به الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ على الوحى يوحى إليه به من عند ربه ، علمه إياه ملك شديد القوى وهو جبريل ، ووصفه بشدة القوى معناه أن الله أودعه القدرة الفائقة على أداء مهامه. والتعبير هنا بالقصر يستند إليه من لا يرى الاجتهاد للأنبياء ، وقد يجاب عنه بأن الله ـ سبحانه ـ إذا سوغ لهم الاجتهاد كان الاجتهاد وما يستند إليه وحيا .

ومن الوحى (الرؤيا الصالحة) ، وحديث الرؤيا الصالحة روى بألفاظ متقاربة : (الرؤيا الصالحة — الرؤيا الحسنة من الرجل الصالح — رؤيا المؤمن : جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة) ، وأخرجه البخارى

فى كتاب التعبير وفى كتاب الطب ، ومسلم فى كتاب الرؤيا ، وابن ماجه فى السنن ، ومالك فى الموطأ ؛ بأسانيد عدة عن أنس بن مالك ، وأبى هريرة ، وأبى سعيد الخدرى ، وعبادة بن الصامت ، وعطاء بن يســـار . والرؤيا (بالقصر) مصدر كالبشرى مختصة غالبا بشيء محبوب يرى فى المنام ، وقيل: الرؤيا كالرؤية جعلت ألف التأنيث مكان التاء للفرق بين ما يراه النائم وما يراه اليقظان .

والرؤيا الصالحة أو الحسنة هى الرؤيا الصادقة ؛ عن عائشة — رضى الله عنها — : (أول مابدىء به رسول الله الرؤيا الصالحة فى النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح) . وهى الرؤيا المبشرة أى التى تدخل البشر والسرور ؛ عن أبى هريرة أنه سمع الرسول - صلى الله عليه وسلم - يقول : (لم يبق من النبوة إلا المبشرات ، قالوا ، وما المبشرات ، قال : الرؤيا الصالحة) — أخرجه البخارى ، ومعنى كونها جزءاً من ستة وأربعين جزءاً من النبوة أنها جزء من أجزاء النبوة فى الجملة ، وقال ابن العربى :أجزاء النبوة لا يعلم حقيقتها إلا ملك أو نبى ، وإنما القدر الذى أراد الرسول بيانه أن الرؤيا جزء من أجزاء النبوة فى الجملة ، لأن فيها اطلاعاً على الغيب من وجه ما ، وأما تفصيل النسبة فمن علوم النبوة .

ومن الوحى (الإلهام) ، كإلهام النحل أن تتخذ من الجبال بيوتاً (ومن الشجر ومما يعرشون) ، والإيحاء هنا إلهام — كما قال المصنف — وإلقاء فى القلب وتعليم على وجه لا سبيل لأحد إلى الوقوف عليه وإن أدرك آثاره . والتعبير (بمن) لإرادة معنى البعضية ، فهى لا تتخذ بيوتها فى كل جبل وكل شجر وكل ما يعرش ، لأن مصلحتها تقع فى بعض المواطن دون بعض ، وسبحان الله العلى القدير .

ومن الوحى (الكتابة)، ومن استعمال الوحى فى الكتابة قول رؤبة: (لقدر كان وحاه الوحى) — أى كتبه الكاتب (عن أساس البلاغة) .

ومن الوحى (إيماءات العين ، واللحظ ، والطرف ، والحاجب ، والفم ، والشفتين ، وإشارات اليد ، والأصابع ، والأنامل) كما قال عمر بن أبى ربيعة أشارت بطرف العين خيفة أهلها . الخ. وعبارة (مرحبا وأهلا وسهلا) للتحية واستقبال القادم ، تتضمن البشاشة لمقدمه ، وإشعاره بمحبة القارين وأنسهم به ، فهم يسعونه فى صـــدورهم ، ويفتحون له مغاليق قلوبهم ، ويجعلون من أنفسهم له أهلا - أو كالأهل - ويوطئون له فى دورهم وديارهم الموطىء السهل — أو كالسهل — وليس بعد هذا إلا الإخلاد إلى السكينة والراحة ، والاطمئنان إلى الأنسة والسلام

وكما قال الشاعر : أشارت بأطراف كأن بنانها . الخ، والأطراف هنا الأصابع، وبنانها أناملها ، والأنابيب الكعوب، والعقيق خرز أحمر ،ومعنى تقميعها بالعقيق أن العقيق جعل لها كالقمع وهو ما التزق بأسفل التمرة والبسرة ونحوهما . ومراد الشاعر أن هذه الأنامل - التى أشارت بها - بيض وتشبه أنابيب الدر ومصبوغة بصبغ أحمر يشبه العقيق .

الاستعارة والمجاز

﴿ وأما الاستعارة فإنما احتيج إليها فى كلام العرب لأن ألفاظهم أكثر من معانيهم ، وليس هذا فى لسان غير لسانهم ، فهم يعبرون عن المعنى الواحد بعبارات كثيرة ، ربما كانت مفردة له ، وربما كانت مشـــتركة بينه وبين غيره ، وربما استعملوا بعض ذلك فى موضع بعض على التوسع والمجاز .

فيقولون — إذا سأل الرجل الرجل شيئاً فبخل به عليه : — لقد بخله فلان ، وهو لم يسأله ليبخل وإنما سأله ليعطيه . لكن البخل لما ظهر منه عند مسئلته إياه جاز فى توسعهم ومجاز قولهم أن ينسب ذلك إليه . ومنه قول الشاعر :

* فللموت ماتلد الوالده *

والوالدة إنما تطلب الولد ليعيش لا ليموت ، لكن لما كان مصيره إلى الموت جاز أن يقال : للموت ولدته .

ومثله فى القرآن :(وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا * وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا) . وذلك أنهم كانوا عند تلاوة القرآن قد حجبوا قلوبهم عن تفهمه وصدفوا بأسماعهم عن تدبره ، فجاز أن يقال على المجاز والاستعارة : إن الذى تلا ذلك عليهم جعلهم كذلك ، والدليل على ماقلناه وأن حقيقة الأمر أنهم هم الفاعلون لذلك دون غيرهم : قول الله — عز وجل — فى موضع آخر : (وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا) .

ومثل الأول قوله : (ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا) ؛ لأنه لما غفل عن الذكر كان بمنزلة من بخل عند المسألة ، فجاز أن يقال للذى أذكره: قد أغفله ، وقد أغفل قلبه ، كما جاز أن يقال للذى سأل ذلك فبخل عليه : قد بخله .

ومن الاستعارة ماقدمناه من إنطاق الربع وكل مالا ينطق إذا ظهر من حاله مايشاكل النطق ، ومما جاء من هذا النوع فى القرآن قوله (يوم نقول لجهنم : هل امتلأت ؟ وتقول : هل من مزيد ؟) ، لما جاز أن تحتمل مزيدا من الكافرين حسن أن يقال : وتقول هل من مزيد . وكذلك قوله : (ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض : ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا : أتينا طائعين) ، وذلك لما كانتا على إرادته من غير استصعاب عليه ولا عصيان له ، جاز أن يقال: إنهما قالتا : أتينا طائعين. وكذلك قوله: (فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض فأقامه) ، لما كانت الإرادة من أسباب الفعل وكان وقوع الفعل يتلوها ، جاز ـ لما قد كاد أن يقع وقرب وقوعه ـ أن يقال : أراد أن يقع . ومثل ذلك قول الشاعر :

* امتلأ الحوض وقال قطني *

أي لما لم تكن فيه سعة لغير ما قد وقع فيه من الماء ، جاز على الاستعارة أن يقال : قد قال حسبي ، وهذا شائع في اللغة كثير » .

يتابع المصنف في مبدأ الحاجة إلى الاستعارة والمجاز بعض الباحثين في أصول اللغة ونشأتها ، ويستفاد مما حفظناه عنهم : أن الناس كلما مضوا في الحياة نمت حاجاتهم للعبارة عما يجد في أساليب حياتهم ومضامينها ، وعما تستوجبه صلاتهم وعلاقاتهم ، وعما تتسع له أفكارهم وتصوراتهم ، فجعلوا يضعون الكلمات والألفاظ التي يصورون بها هذا الجديد ، أو يتواضعون عليها .

وقد نمت ألفاظ اللغة العربية بعوامل عدة ، أجملوها في ، الاشتقاق ، والإلحاق ، والزيادة ، والنحت ، والقلب ، والإبدال . ونمت العبارة (وإن شئت فقل الألفاظ في حال تركيبها) بالتجوز ، والتكنية ، والاشتراك . وجاء التعريب ورموز العلوم التي أسميناها مصطلحات وما إليها عوامل تنمية مضافة إلى العوامل السالفة .

وبهذا المفهوم يصير المجاز ـ ومنه الاستعارة ـ من وسائل نمو اللغة ؛ لأن المعنى يعبر عنه تارة باللفظ الذي وضع له ، وتارة بلفظ آخر ينقل عن موضع استعماله في أصل اللغة إلى غيره (وهذا كله هو موضوع علم البيان) ومقتضى هذا أن تتسع العبارة لأكثر من معنى ، أي أن تزيد المعاني على الألفاظ ، وليس كما قال المصنف (ألفاظهم أكثر من معانيهم) .

ومع ذلك نقول بتساوي المعاني والألفاظ ولا نقول بزيادة المعاني على الألفاظ ؛ لأن اللفظ والمعنى يرتبط كلاهما بالآخر ارتباط لزوم ويستدعيه ، فإذا حضر اللفظ استدعى المعنى ولزمه ، وإذا حضر المعنى انبثق اللفظ الذي يؤديه . وصانع المجاز إنما يصنع لفظا لمعنى استجد أو يضع معنى في قالب

من اللفظ فهو لا يصنع لفظاً افراغ ، ولا يخترع معنى غير واجد له جسداً من اللفظ .

وقد مثل المصنف أول مامثل بقول من يقول : « لقد بخله فلان » والضمير فى الفعل يعود على المسئول ، وفلان هو السائل ، وهو سأله ليعطيه لا ليبخل عليه ، لكن لما ظهر منه البخل جاز توسعا ومجازاً نسبة البخل إليه . ويجوز على غير تأويل المصنف ألا يكون فى الكلام تجوز فيكون معنى « بخله » رماه بالبخل .

ومثل ذلك قول الشاعر :

هم يطعنون صدور الكما ة والخيل تطرد أو طارده
فإن يكن الموت أفناهم فللموت ماتلد الوالده

وهو مثال استشهد به نحاة الكوفة ومن تابعهم على أن اللام (فى قوله « للموت ») للصيرورة والعاقبة والمآل ، ومثله قول الشاعر :

فللموت تغذو الوالدات سخالها
كما لخراب الدور تبنى المساكن

وقول القائل (وينسب للإمام على) :

لدوا للموت وابنوا للخراب
فكلكم يصير إلى ذهاب

ومثل ذلك قوله تعالى : (فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا ـ القصص ٨ ـ

قال الزمخشرى فى تفسير هذه الآية : اللام فى قوله « ليكون » لام كى التى

معناها التعليل كقولك : جئتك لتكرمنى ، سواء بسواء ، ولكن معنى التعليل فيها وارد على طريق المجاز دون الحقيقة ، لأنها لم تكن داعيهم إلى الالتقاط أن يكون لهم عدوا وحزنا — ولكن المحبة والتبنى — غير أن ذلك لما كان نتيجة التقاطهم له وثمرته ، شبه بالداعى الذى يفعل الفعل لأجله ، فاللام مستعارة لما يشبه التعليل ، كما يستعار الأسد لمن يشبه الأسد (عن الكشاف) . وعلى سبيل التنظير تأتى الاستعارة فى الأبيات .

وقوله تعالى : (وإذا قرأت القرآن .. الآيتين) ـ حكاية عما كان يقوله المعرضون عن الدعوة : (وقالوا : قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه ، وفى آذاننا وقر ، ومن بيننا وبينك حجاب) . (فصلت ٥) . ولهذا صح المصنف أن يتأول ويقول بالتجوز ، لاحظين أنه يأخذ نفسه بمبدأ اختيار العبد .

والحجاب المستور هو الحجاب ذو الستر ، كقولهم سيل مفعم أى ذو إفعام ، وقيل : هو مستور لأنه غير مرئى . والأكنة جمع كن وكنة وكنان (بكسرها)وهو الستر . والوقر ثقل فى السمع — وهو المراد هنا — أوذهاب السمع كله . وأن يفقهوه ـ على تقدير كراهة أن يفقهوه ـ بمعنى منعناهم أن يفقهوه ؛ بتضمين جعلنا على قلوبهم أكنة معنى منعناهم .

والآية : (وإنى كلما دعوتهم ...) ـ نوح ٧ ـ من حكاية نوح ـ عليه السلام ـ عن قومه . ومعنى استغشوا ثيابهم تغطوا بها كأنهم طلبوا أن تغشاهم لئلا يعرفهم أولئلا يبصروه كراهة النظر إليه .وأصروا: استعارة لإكبابهم على المعاصى؛ من أصر الحمار على الأتان نصب أذنيه وأقبل عليها يكدمها ويطردها (قاله الزمخشرى) .واستكبروا : تكبروا وتجبروا أى أخذتهم العزة من اتباع الرسول وطاعته .

والآية : (ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا) الكهف ٢٨ ـ مناسبتها أن

رؤساء الكفر دعوا الرسول أن ينحى عن مجلسه الفقراء أمثال صهيب وعمار وخباب حتى يجالسوه ، فنزلت الآية :(واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ، ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا) ، وجعل المصنف (أغفلنا قلبه) من التجوز ، ويجوز على رأى غيره أن تكون الهمزة فى الفعل لإيجاد المفعول على صفة مأخوذة من أصل الفعل ، أى وجدنا قلبه غافلا كقولك أحمدته وجدته حميداً ، وأبخلته وجدته بخيلا . وقرىء : (أغفلنا قلبهُ) - برفع قلبهُ أى بإسناد الفعل إلى القلب - فيكون معناه حسب قلبه أننا غافلون عنه ،

والمصنف عندما تكلم فى أول كتابه عن وجوه البيان كان قد أوضح أن البيان بالاعتبار هو بيان الأشياء بذواتها وبعجيب تركيب الله فيها وآثار صنعته فى ظاهرها ، وقرر أنها صامتة فى أنفسها لكنها ناطقة بظاهر أحوالها . وعلى هذا النحو استنطقت العرب الربع وخاطبت الطلل ، ونطقت عنه بالجواب على سبيل الاستعارة فى الخطاب .

ففى آية جهنم وطلبها الزيادة - ق . الآية ٣٠ - تعتبر جهنم ناطقة تسمع وتجيب ، ومرد ذلك تنزيلها منزلة الناطق ، فسؤالها وقع لتصوير معنى امتلائها مع اتساعها وتباعد أطرافها ، وجوابها وقع لتصوير معنى استكثار الداخلين فيها واستبعاد الزيادة عليهم لفرط كثرتهم أو لتصوير معنى طلب الزيادة منهم غيظا عليهم وعلى أمثالهم ، وهناك من يرى أن الله يخلق يوم القيامة فى جهنم الإدراك وأن سؤالها وجوابها يقعان حقيقة لا تصويراً .

وفى آية السماء والأرض وطاعتهما — فصلت ، الآية ١١ — يكون معنى

استواء الله تعالى إلى السماء وهى دخان : توجه قدرته تعالى ـ بعد أن خلق الله الأرض ـ إلى السماء لخلقها من الدخان الذى أخرجه من الماء . وقوله (ائتيا طوعا أو كرها) بمعنى: كونا على ما تقضى به الحكمة والتدبير وعلى ما ينبغى من الشكل والوصف . وطوعا أو كرها : فى محل الحـــال أى طائعتين أو مكرهتين ، وهى — فى رأى الزمخشرى — تمثيل للزوم تأثير القدرة فيهما وأن امتناعه من تأثير قدرته محال كما يقول الجبار لمن تحت يده : لتفعلن هذا شئت أو أبيت . وفى قوله (أتينا طائعين) إشعار بأنهما فى صفتهما هذه على مستوى العقلاء الذكور . وفيه ما فيه من رفعة الشأن وعلو المكانة . وفى الآية: نزلت السماء والأرض منزلة ناطق فيما أمرتا به وفيما امتثلتا له ، وليس هـذا التنزيل مقصوداً لذاته ، وإنما هو لتصوير أثر قدرة الله فى المقدورات .

وآية الجدار فى سورة الكهف — الآية ٧٧ — جاءت فى قصة موسى والخضر ، إذ أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جداراً كاد ينقض فأقامه الخضر بأمر الله ، واستعيرت الإرادة للمقاربة والمداناة والمشارفة . وينقض أى يسقط وقيل يتصدع قبيل سقوطه .

والشعر :

امتـــلأ الحوض وقال قطنى ... مهلا رويداً قـد ملأت بطنى

شاهد المصنف على النطق بلسان الحال . وهو من جهة أخرى من شواهد النحاة على استعمال « قط » اسم فعل ، وتقول « قطنى » مضافة إلى ياء المتكلم بنون الوقاية ـ إذا كانت بمعنى يكفينى ، وتقولها بنون الوقاية وبدونها إذا كانت بمعنى حسبى ؛ قال ابن مالك :

وفى لدنّى لدنى قلّ . وفى ... قدنى وقطنى الحذف أيضاً قد يفى

ومن أمثلة استنطاق مالا ينطق ونحوه :

* إن دهرا يلف شملى بجمل
لزمان يهم بالإحسان (لحسان)

* سمعت الناس ينتجعون غيثا
فقلت لصيدح انتجعى بلالا (لذى الرمة)

* قالت له ريح الصبا : قرقار
اختلط المعروف بالإنكار (لأبى النجم)

* فاستنطق العود قد طال السكوت به
لا ينطق اللهو حتى ينطق العود (لأبى نواس)

* أبت الروادف والثدى لقمصها
مس البطون وأن تمس ظهوراً (؟)

الأمثال

(فأما الحكماء والأدباء والعلماء فلا يزالون يضربون الأمثال ، ويبينون للناس تصرف الأحوال ، بالنظائر والأشباه والأشكال ، ويرون هذا النوع من القول أنجح مطلبا ، وأقرب مذهبا ، ولذلك قال الله - عز وجل - : (ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل) . وقال : (وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال) .

وإنما فعلت العلماء ذلك ؛ لأن الخبر فى نفسه إذا كان ممكنا فهو يحتاج إلى ما يدل عليه وعلى صحته . والمثل مقرون بالحجة ؛ ألا ترى أن الله - عز وجل - لو قال لعباده : إنى لا أشرك أحداً من خلائقى فى ملكى لكان ذلك قولا محتاجا إلى ان يدل على العلة فيه ووجه الحكمة فى استعماله ؛ فلما قال :

(ضرب لكم مثلا من أنفسكم : هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم) ؛ كانت الحجة من تعارفهم(١) مقرونة بما أراد أن يخبرهم به من أنه لا شريك له فى ملكه من خلقه ، لأنهم عالمون بأنهم لا يقرون أحدا من عبيدهم على أن يكون فيما ملكوه مثلهم ، بل يأنفون من ذلك ويدفعونه ، فإن الله - عز وجل - أولى بأن يتعالى عن ذلك .

فلذلك جعلت القدماء أكثر آدابها وما دونته من علومها بالأمثال والقصص عن الأمم ، ونطقت ببعضه على ألسن الوحش والطير .

وإنما أرادوا بذلك أن يجعلوا الأخبار مقرونة بذكر عواقبها ، والمقدمات مضمومة إلى نتائجها ، وتصريف القول فيها ؛ حتى يتبين لسامعه ما آلت إليه أحوال أهلها عند لزومهم الآداب أو تضييعهم إياها . ولهذا بعينه قص الله علينا أقاصيص من تقدمنا ممن عصاه وآثر هواه فخسر دينه ودنياه ، ومن اتبع رضاه فجعل الخير والحسنى عقباه وصير الجنة مثواه ومأواه ، وقال فى مثل ذلك : (ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون) ».

ونقول : المثل فى صورته التعبيرية كلمة سائرة قيلت على سبيل الحكمة أو على سبيل تمثيل حال . ولكل أمة أمثالها . وأمثال العرب سجل واف لأفكارهم وتطلعاتهم وتقاليدهم وعاداتهم ومضامين فطرتهم وحياتهم وسلوكهم . وقد أسهم حكماؤهم فى ضرب الأمثال كلقمان الحكيم وأكثم بن صيفى . وجاءت سائر الأمثال تمثيلا لأحوالهم فأوردوها تصويراً للوقائع والأحداث والقصص ، وجاء الخلف فالتقطوها واستشهدوا بها — وما يزالون إلى اليوم وإلى أن يرث الله الأرض يستشهدون بها — فى أحوال تحاكى الأحوال التى قيلت فيها ، على سبيل الاستعارة التمثيلية ، فالمورد فى المثل أو الحال

---

(١) لعلها (من متعارفهم) .

التى قيل فيها أول مرة هو أصل المثل المستعار منه ، والمضرب فى المثل أو الحال التى يحكى فيها بعد ذلك هو شبيه المثل المستعار له . ويبقى المثل فى صورته التعبيرية كما هو لا يقبل تعديلا أو تبديلا أو تغييراً . وقول المصنف: (المثل مقرون بالحجة) يفسره قول الإمام عبد القاهر فى التمثيل — والمثل من التمثيل — : (واعلم أن مما اتفق العقلاء عليه أن التمثيل إذا جاء فى أعقاب المعانى ، أو برزت هى باختصار فى معرضه ونقلت عن صورها الأصلية إلى صورته ؛ كساها أبهة ، وكسبها منقبة ، ورفع من أقدارها ، وشب من نارها ، وضاعف قواها فى تحريك النفوس لها ، ودعا القلوب إليها ، واستثار لها من أقاصى الأفئدة صبابة وكلفا ، وقسر الطباع على أن تعطيها محبة وشغفاً .

فإن كان مدحاً كان أبهى وأفخم ، وأنبل فى النفوس وأعظم ، وأهز للعطف ، وأسرع للإلف ، وأجلب للفرح ، وأغلب على الممتدح ، وأوجب شفاعة للمادح ، وأقضى له بغر المواهب والمنائح ، وأسير على الألسن وأذكر ، وأولى بأن تعلقه القلوب وأجدر .

وإن كان ذما كان مسه أوجع ، وميسمه ألذع ، ووقعه أشد ، وحده أحد . وإن كان حجاجا كان برهانه أنور ، وسلطانه أقهر ، وبيانه أبهر . وإن كان افتخاراً كان شأوه أبعد ، وشرفه أجد ، ولسانه ألد .

وإن كان اعتذاراً كان إلى القبول أقرب ، وللقلوب أخلب ، وللسخائم أسل ، ولغرب الغضب أفل ، وفى عقد العقود أنفث ، وعلى حسن الرجوع أبعث . وإن كان وعظا كان أشفى للصدر ، وأدعى إلى الفكر ، وأبلغ فى التنبيه والزجر ، وأجدر بأن يجلى الغياية ، ويبصر الغاية ، ويبرىء العليل ، ويشفى الغليل) . (أسرار البلاغه ٩٢ وما بعدها) .

وجاءت الآية : (ضرب لكم مثلا من أنفسكم) — كما أشار المصنف — لتقرير العباد بوحدانية الله ونفى الشريك عنه وإعطاء الحجة على ذلك ؛ فالله — سبحانه وتعالى — ضرب لكم أيها العباد هذا المثل الذى انتزعه من أقرب شىء إليكم وهو أنفسكم : هل ترضون لأنفسكم أن يشارككم عبيدكم .

ـ وهم ما ملكت أيمانكم ـ فيما رزقتم من الأموال وغيرها ، بحيث تكونون أنتم وهم على السواء فى التصرف فيها لا فرق بينكم وبينهم ، وبحيث تخافون أن تستبدوا بالتصرف دونهم ، كما يخاف بعضكم من الأحرار بعضاً ! فإذا أبيتم ذلك لأنفسكم ولم ترضوه فكيف ترضون مثله لله وكيف تقبلون أن يكون له شركاء من عبيده !

والأمثال نوعان : حقيقية وفرضية ، والحقيقية ما لها أصل معروف سبقت له ، والفرضية ما جاءت على ألسن الحيوان والطير والنبات والجماد ، وتتخذ هذه متكأ للأمثال للاحتيال على بلوغ المعنى خوفاً من بطش أو فراراً من مؤاخذة ، وللاستطراف طلباً للتسلية والتزجية .

ونذكر لك طائفة من أمثال العرب ، ونبين لك مضاربها ، ونحيلك ـ إن أردت التعرف إلى مواردها ـ على « مجمع الأمثال » للميدانى (٥١٨ هـ) ، وهو أجمع كتاب فى هذا الباب ، حوى ما ضمه نحو خمسين كتابا ألف قبله ، ورتبه على حروف المعجم ، وأضاف إليه أمثال المولدين إلى وقته : ـ

أخذ القوس باريها (لمن حصل ما هو له أهل) . إذا جاء موسى وألقى العصا : فقد بطل السحر والساحر (لصاحب الحق لا يمارى فيه) . إذا عز أخوك فهن (لمياسرة الأهل والأصدقاء) . استنوق الجمل (للمخلط فى كلامه وتصرفه) . الصيف ضيعت اللبن (لمن يطلب الفرصة بعد أن تسبب فى ضياعها) . المورد العذب كثير الزحام (للشىء أو الرجل يكثر رواده) . إن البغاث بأرضنا يستنسر (للضعيف يقوى) . إن البلاء موكل بالمنطق (لمن يتورط بمقاله فيما يؤذيه) . إن العوان لا تعلم الخمرة (لذى التجربة العليم). إن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهراً أبقى (للمجهد نفسه دون تحصيل فائدة) أنت ترقم على الماء ـ أنت تضرب فى حديد بارد ـ أنت تنفخ فى غير فحم (لمن يلح فى طلب المستحيل) . إنك لا تجنى من الشوك العنب (لمن يعالج

أمر آغير مشمر ثمرته) .تسمع بالمعيدى خير من أن تراه (لمن مخبره خير من مظهره) . تجوع الحرة ولا تأكل بثديها (لذى العفة يترفع عن ملابسة الخسيسة). خلا لك الجو فبيضى واصفرى (للحاجة يتمكن منها طالبها) . رجع بخفى حنين (لذى المسعى الخائب) . سبق السيف العذل (فى استحالة تدارك مافات) .قضية ولا أباحسن لها (فى المشكلة لا تجد حلا). كل الصيد فى جوف الفرا (لمن حصل أعظم نصيب) . لا تعدم الحسناء ذاما « والذام العيب » (لمن قصر عن بلوغ الكمال) . لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين (للافادة من الخطأ الأول) . لكل جواد كبوة — لكل صارم نبوة (للحصيف الحازم تند عنه هفوة) . ما زال يفتل فى الذروة والغارب حتى بلغ ما أراد (لمن يأخذ الأمور برفق واستمرار حتى يحصلها) .ولا بد دون الشهد من إبر النحل (لتحمل المشقة فى سبيل النجاح) . وعند جهينة الخبر اليقين (للمحيط بالأمر إحاطة تامة) . يبتغى الصيد فى عريسة الأسد (لمن يخاطر بنفسه فى أمر فيه هلاكه) .

ومن أمثالهم الفرضية ما جاء على لسان الضب فى هذه الأسطورة : زعموا أن أرنبا التقطت تمرة فاختلسها الثعلب ، وانطلقا يختصمان إلى الضب. قالت الأرنب : ياأبا الحسل : قال (سميعاً دعوت) . قالت : أتيناك : لنحتكم إليك . قال : (عادلا حكمتما) . قالت فاخرج إلينا . قال . (فى بيته يؤتى الحكم) . قالت : إنى وجدت تمرة . قال : (حلوة فكليها) قالت : فاختلسها الثعلب . قال : (لنفسه بغى الخير) قالت : فلطمته . قال :(بحقك أخذت) . قالت . فلطمنى قال : (حر انتصر) . قالت : فاقض بيننا. قال : (قد قضيت) .

ويطول بنا الحديث — ويحلو — لو أردنا أن نتتبع الأمثال المضروبة فى القرآن الكريم . ففيه آيات تجرى مجرى أمثال الناس كقوله تعالى : «إن

الإنسان لكفور مبين » (الزخرف ١٥) . « إن الله لا يحب المعتدين » (المائدة ٨٧) « إنه لا يفلح الظالمون » (القصص ٣٧) . « تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى » (الحشر ١٤) . «ضعف الطالب والمطلوب» (الحج ٧٣). «ظهر الفساد فى البر والبحر» (الروم ٤١). « قل : كل متربص فتربصوا » (طه ١٣٥). « كل امرىء بما كسب رهين » (الطور ٢١) . « كل حزب بما لديهم فرحون» (الروم ٣٢) . « كل نفس بما كسبت رهينة » (المدثر ٣٨) . « لكل نبأ مستقر » (الأنعام ٦٧) ، « لمثل هذا فليعمل العاملون » (الصافات ٦١) . «ما على الرسول إلا البلاغ» (المائدة ٩٩) . «والله ذو فضل على المؤمنين» (آل عمران ١٥٢) . « ورزق ربك خير وأبقى » (طه ١٣١) « ولا تتبع سبيل المفسدين» (الأعراف ١٤٢) . «ولكل وجهة هو موليها» (البقرة ١٤٨). « وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » (الحديد ٢٠) . «ونيسرك لليسرى» (الأعلى ٨) .

وفى القرآن أقاصيص وأمثال مضروبة للناس لعلهم يتذكرون فيعتبرون فيفلحون ، كقوله تعالى : « إن الله لا يستحى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها . . . الآية » (البقرة ٢٦) . « ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه . . الآيات» (البقرة ٢٥٨ — ٢٦٠). « مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة . . الآيات» (البقرة ٢٦١ — ٢٧١) «إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام . . الآية» (الأعراف ٥٤) . « إن شر الدواب عند الله الصم البكم . . الآيتين » «الأنفال ٢٢ و ٢٣ » . «ولو أن قرآنا سيرت به الجبال . . الآية » : (الرعد ٣١). « ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة . . الآيات» (إبراهيم ٢٤ — ٢٧) . « وإن لكم فى الأنعام لعبرة . . الآيات ». (الأنعام ٦٦ — ٦٩). « ضرب الله مثلا عبدا مملوكا . . الآيتين » (النحل ٧٥ و ٧٦) « واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب . . الآيات » (الكهف ٣٢ — ٤٥) . « يأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له . . الآية » (الحج ٧٣).

وآية لهم الأرض الميتة أحييناها الآيات » (يس ٣٣ - ٤٤) . « فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق ... الآيات » (فصلت ١٥ - ١٧) . « مثل الجنة التى وعد المتقون .. الآية » (محمد ١٥) . « نحن خلقناكم فلولا تصدقون .. الآيات » (الواقعة ٥٧ - ٧٤) « اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة .. الآية » (الحديد ٢٠) .

الحذف

﴿ وأما الحذف فإن العرب تستعمله للإيجاز والاختصار والاكتفاء بيسير القول ، إذا كان المخاطب عالماً بمرادها فيه ، وذلك كقوله عز وجل : (وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم لعلكم ترحمون) وسكت عن تمام الكلام لعلم المخاطب به فكأن تقدير ذلك : (وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم استكبروا وتمادوا وعتوا) ، وكذلك قوله : (ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله تواب حكيم) حذف ما بعده لعلم المخاطب به ، فكأن تقديره (ولولا فضل الله عليكم ورحمته لعذبكم بما فعلتم) ، ومن ذلك قول الشاعر :

أجدك لو شىء أتانا رسوله
سواك ، ولكن لم نجد لك مدفعا

أراد (لدفعناه ولكن لم نجد لك مدفعاً) ، فحذف اكتفاء بعلم المخاطب بما أراد .

ومثله قوله :

فلما أجزنا ساحة الحى وانتحى
بنا بطن خقف ذى قفاف عقنقل

وهذا كثير فى كلام العرب ﴾

الإيجاز ضربان : إيجاز القصر ، وإيجاز الحذف .

فالقصر : معنى كثير فى لفظ قليل لاحذف فيه كقوله تعالى : (ولكم فى القصاص حياة) ، وقوله : (إنما بغيكم على أنفسكم) ، وقوله : (ألا له الخلق ، والأمر) ، وقول الرسول — صلى الله عليه وسلم — (الضعيف أمير الركب) ، وقوله : (إن من البيان لسحرًا) ، وكقول الرشيد توقيعاً فى محنة البرامكة : (أنبتتهم الطاعة وحصدتهم المعصية) ، وكتوقيع جعفر ابن يحي لعامل كثرت الشكوى منه : (كثر شاكوك ، وقل شاكروك ، فإما عدلت ، وإما اعتزلت)

والحذف — أو إيجاز الحذف — معنى عبر عنه بعبارة حذف منها مالا يخل بالفهم ، ويتأتى هذا بوجود قرينة لفظية أو حالية تشير إلى المحذوف ، والمحذوف جملة أو كلمة أو حرف على مايأتى .

والآية الأولى من سورة يس — الآية ٤٥ . والمحذوف جملة الجواب كما أوضح المصنف ودل عليه قوله تعالى عقيب الآية : (وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين) ؛ فهذه الآية تقرر أن الإعراض دأبهم عند كل آية وموعظة . وقوله (مابين أيديكم وماخلفكم) يراد به ماتقدم من الذنوب وماتأخر ، أو مابين أيديكم من وقائع الأمم المكذبة وماخلفكم من أمر الساعة والغيب . والله أعلم .

والآية الثانية من سورة النور — الآية ١٠ . وجاءت فى ختام الحديث عن قذف المحصنات ومايستدعيه من الملاعنة ، وقرينة الحال تشير إلى جملة الجواب المحذوفة .

والبيت الأول لامرىء القيس ، من قصيدة يقص فيها أمانيه فى الحياة ودبيبه إلى المرأة يقول :

تقول — وقد جردتها من ثيابها
كما رعت مكحـــول المدامع أتلعا :

وجدك لو شيء أتانا رسوله
سواك ؛ ولكن لم نجد لك مدفعا

تصد عن المأثور بينى وبينها
وتدنى عـــلى السابرى المضلعا

قوله رعت أى خوفت . وأتلع طويل العنق . وجدك قسم بجده — وفى رواية أجدك ، وهو بالكسر استحلاف بالحقيقة وبالفتح استحلاف بالحظ والبخت . وفى رواية الصناعتين : فأقسم — ص ١٨٢ . والسابرى ثوب رقيق جيد . وقوله : (لم نجد لك مدفعا) دليل الجواب المحذوف وهو (لدفعناه)

والبيت الثانى لأمرىء القيس أيضا من معلقته : يقول عن إحدى غواياته (فى رواية الزوزنى) :

خرجت بها أمشى تجر وراءنا على أثرينا ذيل مرط مرحل
فلما أجزنا ساحة الحى وانتحى
بنا بطن خبت ذى حقاف عقنقل
هصرت بفودى رأسها فتمايلت على هضيم الكشح ريا المخلخل

والمرط الملاءة أو كساء من خز أو صوف . والرحل المنقوش بنقوش تشبه رحال الإبل . وأجزنا ساحة الحى قطعناها والساحة الفناء . وانتحى بنا بطن خبت اعترض أو مال ؛ والخبت الأرض المطمئنة ـ ورواية المصنف

بطن حقف ذى قفاف . والحقف الرمل المشرف المعوج وجمعه حقاف . والقفاف جمع قف وهو ماغلظ وارتفع من الأرض ولم يبلغ أن يكون جبلا . والعقنقل الرمل المتعقد المتلبد . وهصرت بفودى رأسها أى جذبتها بهما والفودان جانبا الرأس . وهضيم الكشح ضامره والكشح منقطع الأضلاع ، وإنما كان هضيما — أى مهضوما — بالنسبة إلى الأعضاء اللحيمة الممتلئة . وريا المخلخل أى ممتلئته والمخلخل موضع الخلخال من الساق .

وجواب لما فى البيت محذوف ، تقديره (أمنا) أو (تمتعت بها) ، وعند أبى عبيدة أن الجواب (انتحى) باعتبار الواو زائدة ، وقيل الجواب (هصرت) فى البيت التالى ، إلا إذا رويناه * إذا قلت هاتى نولينى تمايلت *

وهذه الشواهد الأربعة التى أتى بها المصنف — محذوف فيها جواب الشرط . وقد يكون المحذوف غيره مثل (فعل الشرط) كما فى قول النمر بن تولب :(فإن المنية من يخشها:فسوف تصادفه أينما) أى أينما ذهب.و(جواب القسم) كما فى قوله تعالى : (ق . والقرآن المجيد * بل عجبوا .) كأنه قال : أقسم بالقرآن المجيد لتبعثن ، ودليل هذا الجواب هو قوله بعد : (أئذامتنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد) ، و (عدة جمل)كما فى قوله تعالى : فأرسلون * يوسف أيها الصديق) ، أى فأرسلوه فجاءه ، وقال له : يوسف..و(المضاف) كما فى قوله تعالى : (واسأل القرية التى كنا فيها والعير التى أقبلنا فيها)والتقدير اسأل أهل القرية وأصحاب العير . و (المضاف إليه)كما تدعو :(يارب) والتقدير يا ربى . و(النعت) كما فى قوله تعالى : (يأخذ كل سفينة غصبا) والتقدير :كل سفينة صالحة ، بدليل قوله قبل ذلك (فأردت أن أعيبها) . (والمنعوت)كما فى قوله تعالى : (أن اعمل سابغات) أى دروعا سابغات .

و (الحرف) كما فى قوله تعالى : (يبين الله لكم أن تضلوا) أى لئلا تضلوا. وهناك وجوه آخر تجدها فى كتاب الصناعتين (١٨١ وما بعدها)

الصرف

﴿ وأما الصرف فإنهم يصرفون القول من المخاطب إلى الغائب ، ومن الواحد إلى الجماعة ، كقوله عز وجل : (حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة) .

وكقول الشاعر :

وتلك التى لا وصل إلا وصالها ولا صرم إلا ما صرمت يضير

وقال آخر :

يالهف نفسى كان جدة خاله
وبياض وجهك للتراب الأعفر ﴾

هنا عدة مسائل :

المسألة الأولى — من معانى الصرف فى اللغة : الرد والقلب والإبعاد وتخلية السبيل ، وعلى هذا يكون صرف القول من حال إلى حال — أى نقله — من قبيل الرد وما إليه .

المسألة الثانية — ذكر المصنف أنهم يصرفون القول من المخاطب إلى الغائب ومن الواحد إلى الجماعة ، ولم يمثل لهذا الأخير ، ومثل للأول بالآية الكريمة . قال تعالى : (هو الذى يسيركم فى البر والبحر ؛ حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف ، وجاءهم الموج

من كل مكان ،وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين :لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين)- سورة يونس الآية ٢٢- وفيها بعض الحديث عن طباع البشر حين يصيبهم الضر يفيئون إلى الله ويدعونه مخلصين له الدين لئن أنجاهم ليكونن من الشاكرين .

والشاهد فى قوله : (وجرين بهم . . .) ، وظاهر السياق أن يقول : (حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بكم بريح طيبة وفرحتم بها جاءتها ريح عاصف وجاءكم الموج من كل مكان. وظننتم أنكم أحيط بكم دعوتم الله)، وسر هذا: (المبالغة ؛ كأنه يذكر لغيرهم حالهم ليعجبهم منها ويستدعى منهم الإنكار والتقبيح) — قاله صاحب الكشاف — .

وأما المثالان من الشعر ففيهما صرف القول من الغائب إلى المخاطب للإقبال عليه .

والبيت الأول منسوب للحطيئة والشاهد فى قوله (صرمت) بتاء المخاطبة ؛ وقياسه (صرمتْ) بتاء التأنيث استمراراً فى الحديث عن تلك التى لا وصل إلا وصالها ، والصرم القطيعة ضد الوصل والوصال .

والبيت الثانى منسوب إلى أبى بكر الهذلى من شعراء الجاهلية ، والجدة من الشىء القطعة منه ، يقصد أنه كان نظيره فى الجد ، ثم هان أمره ؛ وهذا هو معنى الشطر الثانى . والتراب الأعفر : الأغبر . وقياس قوله: وبياض وجهك أن يقول : وبياض وجهه ؛ فصرف القول من الغائب إلى المخاطب مقبلا عليه ، ومحترسا أن يكون الحديث عن خاله .

المسألة الثالثة - تناول البلاغيون هذا الصرف عند الحديث عن إخراج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر تحت اسم (الالتفات) وفسره جمهورهم بأنه الانتقال عما يقتضيه ظاهر السياق من التعبير عن المعنى بأحد الطرق

الثلاثة — التكلم ، والخطاب ، والغيبة — إلى طريق آخر منها ، وفسره « السكاكى » بأنه العدول عما يقتضيه ظاهر المقام من التعبير بأحد الطرق الثلاثة إلى طريق آخر منها . فالانتقال عند الجمهور انتقال تحقيقى من عبارة إلى أخرى وينتج ست صور ، والانتقال عند « السكاكى » قد يكون انتقالا تحقيقيا على ما عليه الجمهور وقد يكون انتقالا تقديريا تكفى فيه العبارة الواحدة وينتج ست صور أخرى، وهذه شواهد الصور كلها (ونذكر بين القوسين المصروف عنه) :

على رأى الجمهور :

١ — من التكلم إلى الخطاب : « ومالى لا أعبد الذى فطرنى وإليه ترجعون » (وإليه أرجع) .

٢ — من التكلم إلى الغيبة: « إنا أعطيناك الكوثر فصل لربك وانحر » (فصل لنا) .

٣ — من الخطاب إلى التكلم . قال الشاعر :

طحا بك قلب فى الحسان طروب
بعيد الشباب عصر حان مشيب

يكلفنى ليلى وقد شط وليها
وعادت عواد بيننا وخطوب

(يكلفك) .

٤ — من الخطاب إلى الغيبة : « حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم » (وجرين بكم) .

٥ — من الغيبة إلى التكلم : « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا »(بارك حوله ليريه) .

٦ — من الغيبة إلى الخطاب : « عبس وتولى ، أن جاءه الأعمى ، ومايدريك لعله يزكى » (وما يدريه) .

على رأى السكاكى :

١ — من المتكلم إلى الخطاب . قال الشاعر :

تطاول ليلك بالإثمد وبات الخلى ولم ترقد

(تطاول ليلى . . ولم أرقد)

٢ — من التكلم إلى الغيبة : « سبحان الذى أسرى بعبده » (سبحانى) .

٣ — من الخطاب إلى التكلم : « ومالى لاأعبد الذى فطرنى » (ومالكم لاتعبدون) .

٤ — من الخطاب إلى الغيبة : « عبس و تولى أن جاءه الأعمى » (عبست وتوليت أن جاءك الأعمى) .

٥ — من الغيبة إلى التكلم : يارب وجهنى إلى الخير — على سبيل التعريض — (يا ربه وجهه)(١)

٦ — من الغيبة إلى الخطاب : أنت كعصام تحب الخير للناس — على سبيل المقايسة (عصام مثلك يحب الخير للناس)(١)

---

(١) هذان المثالان لم أجد لهما شاهدا .

المسألة الرابعة — شغل قليل من البلاغيين بصرف القول من الواحد أو المثنى أو الجمع إلى آخر منها، ويمكن أن نقول: إن هذا الضرب من التعبير يتأتى فى عبارتين وفى عبارة واحدة، أى أنه يسير متوازيا مع تفسيرى الجمهور والسكاكى للالتفات. وهاك أمثلته على النمط الذى أسلفناه:

في عبارتين (متوازيا مع تفسير الجمهور):

١ — من الواحد إلى المثنى: «أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا، وتكون لكما الكبرياء فى الأرض» (وتكون لك).

٢ — من الواحد إلى الجمع: «ياأيها النبى إذا طلقتم النساء» (إذا طلقت).

٣ — من المثنى إلى الواحد: فمن ربكما ياموسى» (ياموسى وهارون).

٤ — من المثنى إلى الجمع: «وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوءا لقومكما بمصر بيوتاً واجعلوا بيوتكم قبلة» (واجعلا بيتيكما).

٥ — من الجمع إلى الواحد: «وأقيموا الصلاة وبشر المؤمنين» (وبشروا).

٦ — من الجمع إلى المثنى: «يامعشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان» فبأى آلاء ربكما تكذبان» (فبأى آلاء ربكم تكذبون)

فى عبارة واحدة (متوازيا مع تفسير السكاكى):

١ — من الواحد الى المثنى: «ألقيا فى جهنم كل كفار عنيد» (ألق)»

٢ — من الواحد إلى الجمع : « حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون » (ارجعنى) .

٣ — من المثنى إلى الواحد :

فرجى الخير وانتظرى إيابى إذا ما القارظ العنزى آبا(١)

(القارظان العنزيان) .

٤ — من المثنى إلى الجمع : « ائتيا طوعا أو كرهاً قالتا : أتينا طائعين » (طائعتين) .

٥ — من الجمع إلى الواحد : وذبيان قد زلت بأقدامها النعل (النعال)

٦ — من الجمع إلى المثنى : « ثم ارجع البصر كرتين » (كرات — لأن المقصود التكثير وليس خصوص العدد) .

المبالغة

« وأما المبالغة ، فمن شأن العرب أن تبالغ فى الوصف والذم ، كما من شأنها أن تختصر وتوجز ، وذلك لتوسعها فى الكلام واقتدارها عليه ، ولكل من ذلك موضع يستعمل فيه . . . والمبالغة تنقسم قسمين : أحدهما فى اللفظ والآخر فى المعنى . فأما المبالغة فى اللفظ فتجرى مجرى التأكيد كقولنا : رأيت زيداً نفسه ، وهذا هو الحق بعينه ، فتؤكد زيداً بالنفس ،

---

(١) البيت للأعشى ، وفى المثل : لا آتيك أو يؤوب القارظان وأصله أن اثنين من بنى عنزة ـ وهما عامر بن رهم ويذكر بن عنزة خرجا فى طلب القرظ ـ وهو ثمر السنط أو قشر البلوط أو ورق السلم يستعمل فى الدباغ ـ فلم يرجعا فقيل المثل ، ويضرب فى التيئيس .

والحق بالعين ، وإن كان قولك : « هذا زيد (١) » ، وهذا هو الحق ، قد أغناك عن ذكر النفس والعين ، ولكن ذلك مبالغة فى البيان . ومنه قول الشاعر :

ألا حبذا هند وأرض بها هند
وهند أتى من دونها النأى والبعد

فذكر البعد بعد النأى — وهما شىء واحد — تأكيداً ومبالغة .

وأما المبالغة فى المعنى فإخراج القول على أبلغ غايات معانيه كقوله عز وجل : (وقالت اليهود يد الله مغلولة) . وإنما قالوا : إنه قد قتر علينا ، فبالغ الله — عز وجل — فى تقبيح قولهم فأخرجه على غايات الذم لهم . ومن المبالغة فى المعنى قول الشاعر :

وفيهن ملهى للطيف ومنظر أنيق لعين الناظر المتوسم

فلم يرض أن يكون فيهن ملهى وإن كان ذلك مدحاً لهن حتى قال : « للطيف » لأن اللطيف لا يلهو إلا بفائق ؛ وقال . « ومنظر أنيق » ، وهذا فى الوصف مجزىء ، فلم يكتف به حتى قال : « لعين الناظر المتوسم » ؛ لأن الناظر إذا كرر نظره وتوسم تبينت له العيوب عند توسمه وتكراره نظره ، ولذلك قال الشاعر :

يزيدك وجهه حسنا إذا ما زدته نظرا

ومن هذا المعنى قول الشاعر أيضاً :

فلما صرح الشر فأمسى هو عريان
مشينا مشية الليث غدا والليث غضبان

---

(١) لم يطابق قوله : « هذا زيد » قوله قبل : « رأيت زيداً نفسه » .

فلم يرض بتصريح الشر حتى عراه من كل ما يستره ، ولم يرض بمشية الليث حتى جعله غضبان . وأشباه هذا كثير فى القرآن والشعر » .

وأقول :

اعلم أن كل قيد يوضع فى الجملة يزيد الحكم خصوصية ، وكلما زادت خصوصيته زادت فائدته ، ويستوى فى هذا أن يقع القيد على المسند أو المسند إليه ، وأن يقع أول الجملة أو وسطها أو آخرها ، وأن يكون بأدوات الشرط ، أو النسخ ، أو بالفضلة ، أو التابع ، أو غيرها . والمهم أن يؤتى بالقيد لفائدة ومعنى، وألا يكون عبثاً على فصاحة الكلام وبلاغته .

والبيت (ألا حبذا هند) للحطيئة .

وكتب النقد فى مجموعها تجعل قوله فى البيت (النأى والبعد) - وكلاهما بمعنى — قولا رديئاً ؛ لأن فى هذا التكرار فضلا أى زيادة - ويسميها البلاغيون المتأخرون تطويلا ما لم يتعين الزائد — وهى من الإطناب المرفوض (راجع عيار الشعر : ١٠٣ ، والموشح للمرزبانى : ١٤١) ، وزاد فى الصناعتين : ص ١٠٨ (وإن كان قد جاء من هذا الجنس فى كلامهم كثير ، والبيت فى نفسه بارد) .

ومن ناحية أخرى ؛ قيل : إن تكريره لاسم محبوبته ليس معيباً ، لأنه يجد للتلفظ باسمها حلاوة (سر الفصاحة : ١١٥) .

هذه هى المبالغة فى اللفظ .

وأما المبالغة فى المعنى فمثالها فى الآية (وقالت اليهود يد الله مغلولة) . روى أن اليهود — عندما نزل قوله تعالى : (من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له) — ادعوا أن الله ضيق عليهم فى الرزق وأجهدهم ،

كأنهم يعتذرون بهذا عن إقراض الله ـ أى الإنفاق فى سبيله ـ وصوروا هذا الذى نسبوه إلى الله فى صورة غل اليد ، وهو كناية عن البخل ، وقد صورت الحقيقة المعنوية فى صورة حسية تلزمها غالباً ، لإمكان تقرير الحقيقة فى الذهن عن هذا الطريق الحسى .

والبيت الأول (وفيهن ملهى للطيف): جاء فى معلقة زهير بن أبى سلمى، وهو صفة للظعائن اللائى ذكرهن فى أول معلقته. والملهى : اللهو وموضعه، واللطيف المتأنق الحسن المنظر ، والأنيق المعجب ، والمتوسم المتفرس من الوسم أى العلامة ، أو من الوسامة وهى الحسن ، والمعنى — كما أوضحه الزوزنى فى شرح المعلقات السبع — فى هؤلاء النسوة لهو أو موضع لهو للمتأنق الحسن المنظر ، وفيهن مناظر معجبة لعين الناظر المتتبع محاسنهن وسمات جمالهن .

والبيت (يزيدك وجهه حسنا) دليل للمصنف على ما قاله عن تكرار النظر ، وهو منسوب لعبد الصمد بن المعذل .

ومن ناحية أخرى : هذا البيت شاهد لعلماء البلاغة فى مبحث المجاز الحكمى . ومن رأى الإمام عبد القاهر (دلائل الإعجاز : ٢٢٩) أن ليس واجباً أن يكون للفعل ـ يزيد ـ فاعل فى التقدير ؛ كما قالوا : إن تقديره يزيدك الله حسنا وجمالا فى وجهه بسبب ما أودعه من دقائق الحسن والجمال. ورأى الإمام حصيف؛ فإن معنى اللفظ موجود على الحقيقة فليس المجاز فيه، وإذا لم يكن المجاز فى نفس اللفظ كان المجاز فى الحكم لا محالة .

والبيتان (فلما صرح الشر) : للفند الزمانى من قصيدة له فى حرب البسوس ، وفى ديوان الحماسة لأبى تمام (شرح التبريزى : ١٩/١) يتوسط البيتين بيت ثالث هو :

ولم يبق سوى العدوا ن دناهم كما دانوا

وصرح الشر (لازما) : أى تصرح ، بمعنى تبين وظهر وبالغ فى الظهور حتى كأنه رجل عريان عن ثيابه، فشبه الشر بإنسان — عن طريق الاستعارة المكنية — وأثبت له العرى تخييلا ، بمعنى خلص ، وشبهه باللبن الصريح وهو الذى ذهبت رغوته وإذا ذهبت الرغوة فاللبن عريان . وفى البيت الأخير تشبيه مشيتهم إلى الشر بمشية الليث الجائع ، وكنى عن الجوع بالغضب لأنه يصحبه .

القطع والعطف

(وهو واضح لمن أراد أن يعرفه ، وهو فى القرآن كثير ، فمما قطع الكلام فيه وأخذ فى فن آخر من القول ثم عطف عليه بتمام القول الأول قوله : (حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم . . إلى آخر الآية) . ومثله : (حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكيتم وماذبح على النصب وأن تستقسموا بالأزلام ذلكم فسق اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون) ، ثم قطع وأخذ فى كلام آخر فقال : (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا) ، ثم رجع إلى الكلام الأول فقال : (فمن اضطر فى مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم) .

ومثل ذلك ما حكاه عن لقمان فى وصيته لابنه إذ قال له : (يا بنى لاتشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم) ، ثم قطع وأخذ فى فن آخر فقال : (ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن) ، إلى قوله : (فأنبئكم بما كنتم تعملون) ، ثم رجع إلى تمام القول الأول فى وصية لقمان فقال : (يا بنى إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة

أو فى السموات أو فى الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير) إلى آخر الآيات ﴾ .

ربما يتبادر إلى الذهن أن القطع هو الفصل ، والعطف هو الوصل ـ على نحو ما فى كتب البلاغيين المتأخرين ـ وليس الأمر كذلك عند التدقيق ؛ فإن المصنف جعل ـ فيما نستنتجه ـ الموضوع وما يقتضيه من سياق العبارة أصلا فى اعتبار القطع والعطف ؛ وقد ارتضى البلاغيون المتأخرون أن الوصل عطف بالواو ونحوها مما يفيد الشركة فى الحكم ، وأن الفصل ترك العطف . أما المصنف فقد اعتبر القطع مع وجود العطف بالواو ولم يعتبره مع ترك العطف . واعتبر العطف مع عدم الأداة . ونلحظ هذا واضحاً فى الآيات التى استشهد بها ، ومثلا : وصية لقمان ـ بدأت بدعوة لقمان ابنه ألا يشرك بالله (إن الشرك لظلم عظيم) [نلحظ أن المصنف لم يدخل فى اعتباره القطع فى هذه الجملة وفيها عند البلاغيين فصل] ، وبعد هذا قول مقطوع فيه توصية الإنسان بوالديه [لاحظ أن جملة هذا القول مبدوءة بالواو ففيها عند البلاغيين وصل] وبعد هذا عودة إلى القول الأول (يابنى إنها إن تك مثقال حبة .) [لاحظ أن الجملة التى اعتبرها عطفا لم تبدأ بأداة الوصل] .

والآية الأولى: من سورة النساء ـ الآية ٢٣ . ولعلك قارئها وما بعدها لتستوضح القطع والعطف فيها على وجهة المصنف ، فتجد أن قوله تعالى : فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم) قول مقطوع عاد بعده إلى العطف .

والآية الثانية: من سورة المائدة ـ الآية ٣ . وفصل المصنف أمر القطع والعطف فيها تفصيلا . والميتة الحيوان فارقته الروح من غير تذكية أى مات حتف أنفه ، والدم هو الدم المسفوح وكانوا فى الجاهلية يضعونه فى الأمعاء ويشوونها . وما أهل لغير الله به هو ماذبح باسم غير الله كصنم

أو إنسان ، والمنخنقة التى ماتت خنقا . والموقوذة التى ماتت بالضرب بالحديد أوالحجر أوالعصا أونحوها ، والمتردية التى ماتت بسبب سقوطها من أعلى إلى أسفل ، والنطيحة التى نطحتها بهيمة أخرى فماتت ، وماأكل السبع إلاماذكيتم أى ما أكل منها السبع ـ وهو كل حيوان وحشى ـ إلاإذا أدركت بالتذكية ـ وهى الذبح الشرعى ـ وفيها حياة ، وما ذبح على النصب أى ما ذبح على الحجارة التى كانوا ينصبونها حول البيت ويذبحون البهائم عليها قاصدين القربى بها للأصنام ، وأن تستقسموا بالأزلام قيل : معناه تقسيم البهيمة على النصب، وقيل : المقصود به الميسر والقمار ، وقيل : كانوا إذا قصدوا أمراً أعدوا ثلاثة أقداح كتبوا على أحدها (أمرنى ربى) وعلى الثانى (نهانى ربى) وتركوا الثالث غفلا ، فإن خرج الأول مضوا للأمر ، وإن خرج الثانى أمسكوا وصرفوا أنفسهم عن الأمر ، وإن خرج الثالث الغفل أجالوا القداح ثانية وهكذا . وذلكم فسق : إشارة إلى أن تعاطى ما حرمه الله مما سبق فسق كله . والفسق العصيان والترك لأمرالله والفسق الفجور . وقوله تعالى (اليوم) لم يرد به يوماً بعينه وإنما أراد به الزمان الحاضر ومايدانيه من الأزمنة الماضية والآتية ، وقيل: (اليوم) يوم نزول الآية وهو يوم عرفة فى حجة الوداع .

وقوله (يئس الذين كفروا من دينكم): أى يئسوا منه أن يغلبوه أو أن يبطلوه . و(أكملت لكم دينكم) بمعنى أكملت لكم ما تحتاجون إليه فى تكليفكم من الوقوف على الشريعة . (وأتممت عليكم نعمتى) أى بفتح مكة أو بإكمال الدين . (ورضيت لكم الإسلام دينا) : أى اخترته لكم دينا مرضياً . (فمن اضطر فى مخمصة) . أى من وقع بسببها فى ضرورة تناول المحرمات ، والمخمصة المجاعة . (غير متجانف لإثم): أى غير منحرف إلى إثم بأن يأكلها متلذذاً أو متجاوزاً حد الرخصة .

ووصية لقمان من سورة لقمان ؛ الآيات ١٣ — ١٩ : عرفنا القطع

والعطف فيها . ولقمان صاحب الوصية هو لقمان الحكيم . اختلفوا فى أصله وصفته فقيل : هو راع أسود رزقه الله العتق / أو نجار / أو خياط من سودان مصر / أو قاض فى بنى إسرائيل / وقيل هو ابن أخت أيوب / أو ابن خالته / أو هو من أولاد آزر وعاش ألف سنة وأدرك داود وأخذ منه العلم / أو أنه كان يفتى قبل مبعث داود فلما بعث قطع الفتوى .

التقديم والتأخير

﴿ وأما التقديم والتأخير فكقوله : (ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاماً وأجل مسمى) : أراد : ولولا كلمة سبقت من ربك وأجل مسمى لكان لزاما ، وكقوله : (ويعبدون من دون الله مالا يملك لهم رزقا من السموات والأرض شيئا ولا يستطيعون) أراد : لا يملك لهم رزقا من السموات والأرض ولا يستطيعون شيئاً . وفيما ذكرنا دليل على مالم نذكره إن شاء الله ﴾ .

الآية الأولى من سورة طه — الآية ١٢٩ . وجاءت عقيب التنبيه على إهلاك الأمم السابقة كعاد وثمود بحيث يعاين العرب مساكنهم ، ويشهدون آثار الخسف الذى لحقهم ، والكلمة التى سبقت هى الوعد بتأخير العذاب عمن يستحقه من أمة محمد إلى الآخرة . لكان لزاما : أى لكان العذاب لزاما أى لازما من باب الوصف بالمصدر ، وأجل مسمى : هو القيامة وهو معطوف فى الأظهر على « كلمة » ، والتقدير : لولا هذان لكان العذاب واقعاً معجلا . والشاهد فى تأخير المعطوف للإشعار بأن كلا من الكلمة والأجل المسمى كاف وحده فى تأخير العذاب .

والآية الثانية من سورة النحل — الآية ٧٣ . ووجهة المصنف أن لفظ

« شيئا » مقدم من تأخير وأن أصل الجملة (ولا يستطيعون شيئا) ، على معنى أن الكفار يعبدون من دون الله من الأصنام مالا يملك رزقا ومالا يستطيع شيئا (ولما كانت الأصنام فى معنى الآلهة عوملت كالعقلاء) ، أو على معنى أن الكفار يعبدون . . . والكفار لا يستطيعون شيئا مع أنهم أحياء ذوو تصرف وتمييز فكيف بالجماد الذى عدم البصيرة واللب . وفى تفسير الآية وجهة أخرى بتقدير «شيئا» مفعولا به لـ «رزقا» إذا اعتبرته مصدراً باقيا على مصدريته ، أو بدلا منه إذا اعتبرت « رزقا » بمعنى المفعول — أى مرزوقا — وعلى الاعتبار الأول تقع : « من السموات والأرض » صلة للمصدر ، وعلى الاعتبار الثانى تكون صفة ، ورزق السموات المطر ونحوه ، ورزق الأرض النبات وما إليه . ويجوز أن تجعل « شيئا » تأكيداً للايملك والتقدير : ويعبدون من دون الله مالا يملك شيئا من الملك. والله أعلم .

الشعر ديوان العرب

« لم يزل الشعر ديوان العرب فى الجاهلية ، لأنهم كانوا أميين ، (ولم تكن الكتابة فيهم إلا لأهل الحيرة ، ومن تعلم منهم) ، فإنما حفظت مآثرها وأخبار أوائلها ومذكور أحسابها ووقائعها ومستحسن أفعالها ومكارمها بالشعر الذى قيل فيها ونقلته الرواة عن شعرائها . ولولا الشعر ما عرف جود حاتم طيء ، وكعب بن مامة ، وهرم بن سنان ، وأولاد جفنة . لكن الذى قيل فيهم من الشعر أشاد بذكرهم وبين عن فخرهم ؛ فقال الفرزدق فى حاتم طيء :

على ساعة لو أن فى القوم حاتماً
على جوده ضنت بها نفس حاتم

وقال زهير فى هرم :

من يلق يوماً على علاته هرماً يلق السماحة منه والندى خلقا
لو نال حى من الدنيا بمكرمة أفق السماء لنالت كفه الأفقا

وقال آخر :

فما كعب بن مامة وابن سعدى بأجود منك يا عمر الجوادا

إلى غير هذا مما قيد على الأبطال ذكر شجاعتهم ، وشهر فى الناس ذكرهم ، وعرفنا به غناءهم فى مواقعهم ، وآثارهم فى وقائعهم ، فقال عنترة :

ولقد شفى نفسى وأبرأ سقمها قول الفوارس:ويك عنتر أقدم

وقال الآخر :

وفككنا غل امرىء القيس عنه
بعد ما طال حبسه والعناء

وقال آخر :

أليسوا بالألى قسطوا قديماً على النعمان وابتدروا السطاعا
وهم وردوا الكلاب على تميم بجيش يبلع الناس ابتلاعا

وقد ذكر « أرسطاطاليس » الشعر فى ﴿كتاب الجدل﴾ فجعله حجة مقنعة إذا كان قديماً ، واحتج فى كثير من كتب السياسة بقول «أوميروس» شاعر اليونانيين . وقول رسول الله ـ ﷺ ـ أحق بالتقدمة وأولى بالاتباع، وقد قال :(إن من الشعر لحكما) ،وروى عن بعض السلف: (أعربوا القرآن، والتمسوا غريبه فى الشعر) . وقيل : (حسبك من الأدب أن تروى الشاهد والمثل) ، وقال معاوية لابنه : يا بنى ارو الشعر وتخلق به ، فلقد هممت يوم صفين بالفرار مرات ، فما ردنى عن ذلك إلا قول ابن الإطنابة :

أبت لى همتى وأبى بلائى وأخذى الحمد بالثمن الربيح
وإقدامى على المكروه نفسى وضربى هامة البطل المشيح
لأدفع عن مكارم صالحات وأحمى بعد عن عرض صحيح
[وقولى كلما جشأت وجاشت مكانك تحمدى أوتستريحى]

وقال عبد الملك بن مروان لمؤدب ولده فى وصيته إياه : (وعلمهم الشعر يمجدوا وينجدوا) . ﴾

قرر المصنف أن الشعر ديوان العرب ،لأنهم ضمنوه أخبارهم وأحوالهم وشرائعهم ومحامدهم ووقائعهم وأيامهم ، وجعلوه سجل حياتهم . وكانت القبيلة إذا نبغ فيها شاعر أقامت المآدب احتفالا له ، وكانت كل قبيلة تقدم شاعرها ليتحدث باسمها ، ويكون على رأس وفودها إلى الملوك والأمراء والأقيـــال .

واعتمد العرب — فى حفظ أشعارهم — على الرواية ، حتى جاء عصر التدوين ، فنقلت الأشعار إلى الكتب ، وضعف منذئذ الاعتماد على الرواية والرواة .

وقد ذكر المصنف أطرافاً من الأخبار التى تدل على اهتمام العرب بالشعر وروايته ، وتدور هذه الأخبار حول الكرم والشجاعة ، وهما الخصلتان الأثيرتان لدى العرب ، وكلتاهما مجال للحمد والمدح والفخار ، ونقيضتاهما من البخل والجبن مذمة ومنقصة وعار ، والحديث عن هذا وذاك يحفظه الشعر ، ويرويه الخلف عن الأسلاف ، ولكل جيل منه عبرة وعظة ومثال . وحول هذه المعانى أورد المصنف شواهده للتدليل على ماللشعر من دور خطير .

تحدث عن حاتم وكعب وهرم — وهم الثلاثة الذين انتهى إليهم الجود

فى الجاهلية — وعن أولاد جفنة ملوك غسان فى أواخر القرن الخامس الميلادى .

وقد عقد ابن عبد ربه فى كتابه (العقد الفريد — ١/١٢٠) بابا تناول فيه أخبارهم ، وأخبار الأجواد المسلمين وعددهم أحد عشر رجلا فى عصر واحد ، وهم : عبيد الله بن العباس ، وعبدالله بن جعفر ، وسعيد بن العاص (فى الحجاز) ، وعبدالله بن عامر بن كريز ، وعبيدالله بن أبى بكرة ، ومسلم ابن زياد ، وعبيدالله بن معمر ، وطلحة الطلحات (فى البصرة) ، وعتاب ابن ورقاء الرياحى ، وأسماء بن خارجة الفزارى ، وعكرمة بن ربعى الفياض (فى الكوفة) .

وعن جود حاتم نقل المصنف ماتمثل به الفرزدق فى شعره .

ويروى المبرد (الكامل ١/١٣٧) أن الفرزدق صافن رجلا من بنى العنبر إداوة (أى قاسمه مطهرة) ، فرامه العنبرى وسامه أن يؤثره ، وكان الفرزدق جواداً ، فلم تطب نفسه عن نفسه ، فقال :

فلما تصافنا الإداوة أجهشت ... إلى غضون العنبرى الجراضم
فجاء بجلمود له مثل رأسه ... ليشرب ماء القوم بين الصرائم
على ساعة لو أن فى القوم حاتما ... على جوده ضنت به نفس حاتم(١)

---

(١) تصافنا الإداوة : تقاسمناها . أجهشت : بمعنى تسرعت . والغضون : التكسر فى الجلد . والجراضم : الأحمر الممتلىء . والصرائم : جمع صريمة وهى الرملة التى تنقطع من معظم الرمل ، وفى المرجع نفسه : التصافن يكون بطرح حجر فى الاناء يقسم به الماء (ويسمى هذا الحجر المقلة بفتح الميم) ، ثم يصب فيه من الماء مايغمره لئلا يتغابنوا . وكذلك كل شىء وقفوا على كيله أو وزنه .

وعن جود هرم بن سنان نقل المصنف بيتين من مدحة زهير التى مطلعها :

إن الخليط أجد البين فانفرقا
وعلق القلب من أسماء ماعلقا

وماأكثر مدائحه فى هرم بن سنان والحارث بن عوف ، مدحهما إعجابا بهما وتقديراً لدورهما فى الإصلاح بين عبس وذبيان فى حرب داحس والغبراء ، وشكراً لما منحاه من عطاء ، وقدذهب ماأعطياه وبقى ماأعطاهما ، كما نقل عن عمر بن الخطاب .

وعن جود كعب بن مامة نقل المصنف ماتمثل به جرير وهو يمدح عمر ابن عبد العزيز بقوله :

يعود الفضل منك على قريش ... وتفرج عنهم الكرب الشدادا
وقد أمنت وحشهم برفق ... ويعيى الناس وحشك أن تصادا
وتبنى المجد ياعمر بن ليلى ... وتكفى الممحل السنة الجمادا
وتدعو الله مجتهداً ليرضى ... وتذكر فى رعيتك المعادا
وماكعب بن مامة وابن سعدى ... بأجود منك ياعمر الجوادا
تعود صالح الأخلاق ، إنى ... رأيت المرء يلزم مااستعادا

وهذان الجوادان اللذان جعلهما جرير فى منزلة فى الجود أقل من الممدوح هما كعب بن مامة الإيادى ، وأوس بن حارثة بن لأم الطائى ، وينسب أوس أيضا إلى أمه (سعدى) وكانت سخية مثله ، وكان معاصراً لحاتم الطائى وكان كلاهما يتطامن من هباته إذا ذكر الآخر ، وفى الكامل (١/١٣٦) بعض أخبارهما .

وعن شجاعة عنترة نقل المصنف من معلقته التى ملأها فخاراً بشجاعته

وبطولته ، وعن شجاعة بكر بن وائل نقل البيت (وفككنا غل امرىء القيس) وهو من معلقة الحارث بن حلزة اليشكرى التى أنشدها بين يدى عمرو بن هند ملك الحيرة ، وجعل يفخر فيها بقومه بكر بن وائل ويذكر أيامهم ، ويدفع بنى عمومته تغلب بن وائل عن المراء والولوغ فى الباطل ، والبيت الشاهد يشير إلى وقوع امرىء القيس بن المنذر بن ماء السماء فى أسر غسان يوم قتلت أباه المنذر ، فأغارت بكر بن وائل على بعض بوادى الشام ، واستنقذت امرأ القيس هذا .

وكانوا فى الجاهلية يفخرون بأنهم أهل ظلم وجور وطغيان ، ومن ذلك البيتان (أليسوا بالألى قسطوا قديما) وهما للقطامى من شعر يفخر فيه بجاهلية قبيله ، ويذكر أنهم قسطوا — أى ظلموا وجاروا — قديما على مليكهم ، وفى قوله : « ابتدروا السطاعا » — والسطاع ككتاب أطول عمد الخباء — إشارة إلى انتقاضهم على الملك واقتلاعهم الشر من أصله ، و « الكلاب » — بضم الكاف — هو الكلاب الثانى ، يوم من أيامهم ، تقرأ حكايته فى العقد الفريد (٦/٨٩) .

ويذكر المصنف أن « أرسطو » جعل الشعر القديم من أدلته فى كتب السياسة ، فاستشهد منه بما أنشأه « هوميروس » شاعر الإغريق . وعقب المصنف على هذا بأنه أولى لنا أن نعتمد أقوال رسولنا الكريم ، وقد قال الرسول كلمته : (إن من الشعر لحكما) ، وفيها جماع فضل الشعر ، فلنذكرها دائما ، ولنذكر أيضا أن السلف التمسوا غريب الشعر ليعينهم على فهم القرآن ، وأنهم أوصوا برواية الشاهد والمثل ، وما أكثر الشاهد والمثل فى الشعر ، وأنهم أوصوا ولدهم برواية الشعر ، وبالتخلق به ، وبتعلمه ، ليمجدوا - أى ينالوا الشرف والكرم - وينجدوا - أى ينالوا الرفعة

والمضاء . وهذا مثل حى من تاريخ معاوية بن أبى سفيان كم هم فى يوم صفين أن يفر ، فكان يتذكر أبيات عمرو بن الإطنابة - وهو شاعر وفارس جاهلى من الخزرج — فيعدل معاوية عن الفرار . والبلاء البأس فى الحرب. والتلاد المال القديم الموروث. والثمن الربيح استعارة للمكارم المبذولة . وروى البيت الثانى (وإقحامى) و (إجشامى) وكلاهما تكليف النفس الدخول فى المكروه ، وروى (وأضرب هامة البطل المشيح)، وفى هذا الفعل تجديد والواو معه للعطف أو للحال ، وهامة البطل أعلى رأسه ، والمشيح الجاد فى القتال والحذر والمانع لما وراءه . وجشأت بمعنى تحركت واضطربت ، وجاشت : ارتفعت وغلت ، ومكانك اسم فعل بمعنى الزمى ، وتنال النفس الحمد إذا ظفرت ، وتنال الراحة إذا مات صاحبها . هذا الشطر :(مكانك تحمدى أو تستريحى) صار مثلا للحض على الثبات فيما يكون فيه الإنسان من أمر مادام قد اقتنع بدواعيه .

صناعة الشعر

﴿ والذى يسمى به الشعر فائقا ، ويكون إذا اجتمع فيه مستحسنا رائقا : صحة المقابلة ، وحسن النظم ، وجزالة اللفظ . واعتدال الوزن ، وإصابة التشبيه ، وجودة التفصيل ، وقلة التكلف ، والمشاكلة فى المطابقة . وأضداد هذا كله معيبة تمجها الآذان ، وتخرج عن وصف البيان ﴾ .

تلك أمور ثمانية اعتبرها المصنف لازمة لصناعة الشعر ؛ ليكون بها فائقا رائقا . وسيتناولها واحداً واحداً ، ثم يضيف عليها أموراً أخر يعدها مما ينبغى للشاعر أن يلزمه ، على أنه يمكن أن يناقش فى اعتبار اللزوم والانبغاء ، فكلاهما — عند التحقيق — يستويان لدى الشاعر الذى ينشد التفوق والتبريز .

صحة المقابلة

﴿ وأما صحة المقابلة فمثل قول الشاعر :

أميل مع النمام على ابن عمى وأحمل للصديق على الشقيق
وأفرق بين معروفى ومنى وأجمع بين مالى والحقوق

فأحسن قسمة فى المقابلة ، ومال مع من ينبغى أن يمال معه ، وحمل على من يحسن الحمل عليه ، وفرق بين ما ينبغى أن يفرقه ، وجمع بين ما ينبغى أن يجمعه . وأساء الآخر المقابلة حين يقول :

أموت إذا ما صد عنى بوجهه ويفرح قلبى حين يرجع للوصل

فجعل حذاء الموت فرح القلب وحذاء الصد بوجهه الوصل ، وهذه مقابلة قبيحة ، ولو قال :

أموت إذا ما صد عنى بوجهه وأحيا إذا مل الصدود وأقبلا

فجعل حذاء الموت الحياة وحذاء الصد بالوجه الإقبال لكان مصيبا ﴾.

البيتان الأولان لعبد الله بن طاهر ، وهو من وزراء بنى العباس ، والنمام : ما فى الذمة وهو كل حرمة تلزمك صيانتها فإن ضيعتها لزمتك اللائمة ، والمن : الاعتداد بالنعمة والفخر بها والتذكير بها على سبيل الإيذاء .

وقد لخص المصنف مافى البيتين من صحة المقابلة . أما البيت الذى عابه فقد تكون للشاعر مندوحة تصح بها المقابلة ، فإن فرح القلب دليل الحياة فصح أن يوضع موضعها ، وإن الوصل غاية الإقبال ونتيجته. وقد نقول : إن الشاعر جعل نكده لصدود محبوبه موتا ، ووصال المحبوب إقبالا منه .

حسن النظم

﴿ وأما حسن النظم فكقوله :

متاركة اللئيم بلا جواب   أشد على اللئيم من الجواب

وكقوله :

يأيها المتحلي غير شيمته   إن التخلق يأتي دونه الخلق

فهذا نظم حسن جميل له رونق غير مخيل ، فأما قول الشاعر :

أم سلام أثيبي عاشقاً   يعلم الله يقينـــا ربه

أنكم في عينه من عيشه   فاعلميه يا سليمى حسبه

فقبيح النظم ، بادي العوار ، ظاهر الاضطراب ، مختلف غير مؤتلف ﴾ .

نظر المصنف في حسن النظم إلى الرونق غير المخيل أي الرونق الواضح الصادق الذي لا يشكل ولا يوقع في اللبس ، وكلا البيتين المحمودين على هذا فمعنى البيت الأول أن الإعراض عن اللئيم وإهمال جوابه أشد وقعاً عليه من مجاراته وجوابه . ومعنى البيت الثاني أن من تكلف ما ليس من شيمته وطبعه يصعب عليه أن يعود إلى خلقه الأول .

وهذا البيت لسالم بن وابصة ، من شعراء الأمويين . ورواية البيت في حماسة أبي تمام (شرح التبريزي : ٢٣٦/٢) :

عليك بالقصد فيما أنت فاعله   إن التخلق يأتي دونه الخلق

وروى البيت :

دع التخلق يبعد عنك أوله   إن التخلق يأتي دونه الخلق

وهو مأخوذ من قول حاتم الطائي :

ومن يبتدع ما ليس من خيم نفسه   يدعه ويغلبه على النفس خيمها

ومن قول ذى الإصبع العدوانى :

كل امرىء صائر يوماً لشيمته   وإن تخلق أخــلاقاً إلى حين

والبيتان الموسومان بسوء النظم للوليد بن يزيد بن عبد الملك ، وبعدهما على رواية الأصفهانى :

فارحميه ؛ إنه يهــذى بكم   هائم صب قد اودى قلبه
أنت لو كنت له راحمة   لم يكدر يا سليمى شربه

وسليمى هذه معشوقته ، وهى أخت زوجته سعدة التى طلقها وخطب سليمى فردته ورفضه أبوها سعيد بن خالد بن عمرو بن عثمان بن عفان ، فهام بها ، واحتال ليراها أكثر من حيلة ، وأطال فيها الشعر والغناء ، ودس إليها من يسترضيها وهى لا ترضى . ولقد ترى معى أن اضطراب شعره إنما أتاه من اضطراب نفسه .

جزالة اللفظ

« وأما جزالة اللفظ فكقوله :

وعلى عدوك يا ابن عم محمــد
رصدان : ضوء الصبح والإظلام

فإذا تنبه رعته ، وإذا غفا   سلت عليه سيوفك الأحلام

وأما سخافة اللفظ وركاكته ، فمثل قول الشاعر :

يا عتب ، سيدتى ، أما لك دين   حتى متى قلبى لديك رهين
فأنا الصبور لكل ماحملتنى   وأنا الشقى البائس المسكين »

البيتان الأولان لأشجع السلمى من قصيدته فى مدح هارون الرشيد مطلعها :

قصر عليه تحية وسلام ألقت عليه جمالها الأيام

وهو من أحسن المطالع للشعراء المحدثين (الصناعتين ٤٣٣) والرصدان : الرقيبان .

والبيتان الأخيران لأبى العتاهية فى عتبة جارية الخليفة المهدى ، وبعدهما :

وأنا الغداة لكل باك مسعد ولكل صب صاحب وخدين

لا بأس ؛ إن لذاك عندى راحة
للصب أن يلقى الحزين حزين

يا عتب ، أين أفر منك ، أميرتى
وعلى حصن من هواك حصين

وهذا النظم ليس جديداً على النثرية التى عرف بها شعر أبى العتاهية ، وهى — فى هذه الأبيات — نثرية فى اللفظ وفى المعنى معاً .

* * *

اعتدال الوزن

« وأما اعتدال الوزن فكقوله :

إنما الذلفاء همى فليدعنى من يلوم
أحسن الناس جميعاً حين تمشى أو تقوم
أصل الحبل لترضى وهى للحبل صروم

فهذا شعر ليس فيه معنى فائق ولا مثل سابق ، ولا تشبيه مستحسن ولا غزل مستطرف ؛ إلا أن اعتدال وزنه قد كساه جمالا ، وصير له فى القلوب جلالا .

فإذا جئت إلى قول امرىء القيس :

وتعرف فيه من أبيه شمائلا ومن خاله ومن يزيد ومن حجر
سماحة ذا ، وبر ذا ، ووفاء ذا ،
ونائل ذا ، إذا صحا وإذا سكر

وجدته قد أتى من الوصف ما لم يأت به أحد ، ومدح أربعة فى بيت ، وجمع لواحد فضائل الأربعة فى بيت آخر ، وجعل ما مدحه به سجية له فى صحوه وفى سكره ، ففاق فى هذه الأحوال كل شاعر ، إلا أن اضطراب وزنه ، وكثرة الزحاف فيه قد هجناه ، وعن حد القبول قد أخرجاه (١) .

الأبيات المعتدلة الوزن للأحوص . والذلفاء اسم امرأة من الذلف وهو صغر الأنف واستواء الأرنبة ، والصروم القاطعة المجافية .

ونحن نختلف مع المصنف فى اعتبار اعتدال الوزن وحده كافيا لاستحسان الشعر .

والبيتان لامرىء القيس من قصيدة يمدح فيها أخاه سعد بن الضباب ، والإشارات فى البيت الثانى للمذكورين فى بيته الأول على طريق اللف والنشر المرتب .

وكثر القبض (وهو حذف الخامس الساكن) فى البيتين حتى تخلع الوزن ، ووقع فى الصرورة فى البيت الأول بتنوين (شمائل) وحقها المنع منه .

* * *

الإصابة فى التشبيه

﴿ وأما الإصابة فى التشبيه فكقول الشاعر .

فإنك كالليل الذى هو مدركى
وإن خلت أن المنتأى عنك واسع(١)

وكقول الشاعر :

كأن مثار النقع فوق رءوسهم وأسيافنا ليل تهاوت كواكبه

ومما سلك شاعره سبيل التشبيه فأساء ولم يحسن — قوله :

خطاطيف حجن فى حبال متينة تمد بها أيد إليك نوازع (٢)

وقول الآخر :

ألا إنما ليلى عصا خيزرانة إذا لمسوها بالأكف تلين ﴾

للنابغة وشار صلة بهذه الأبيات ، فالنابغة هو صاحب البيتين الأول والثالث : (فإنك كالليل) و (خطاطيف حجن) ، وجاءا بترتيبهما هذا متواليين فى إحدى اعتذارياته للنعمان بن المنذر ، والبيت الأول منهما سبق للمصنف (ص٣١) أن أتى به شاهداً للتشبيه فى المعانى وجعله ابن قتيبة

(١) المنتأى : مكان الانتياء أى النأى وهو البعد . والمنتأى عنك واسع فيه مجاز مرسل علاقته المجاورة لأن الموصوف بالسعة فى الحقيقة هو مسافة ما بين المخاطب والمكان البعيد الذى هرب الشاعر إليه .

(٢) خطاطيف : جمع خطاف وهو الحديدة المعقوفة يخطف بها . وحجن : جمع حجناء وهى المعوجة . ونوازع : جواذب .

مما سبق به النابغة ولم ينازعه فيه أحد (الشعر والشعراء ١ / ١٧٠)، وجعله الإمام عبد القاهر من التمثيل الذى يحتاج إلى الفكر الناشىء عن دقة المعنى ولطفه وترتيب أجزائه (أسرار البلاغة ١١٨).

وفى البيت — كما ترى — يشبه الشاعر النعمان بالليل الذى يعم الكون ولا يخلو منه مكان ولا يستطيع أحد الانفلات منه مهما اتسعت أمامه مذاهبه، ويقصد بهذا أن يصور سطوة النعمان وأنه لا يفوته هارب منه وإن صار إلى أقصى الأرض، ولما كان المقام مقام خوف ورهبة اختار تشبيهه بالليل — دون النهار مع اشتراكهما فى الإفاضة العامة على الكون — لأن فى الليل وحشة يخشى من ورائها وقوع الشر.

وهذا البيت أيضاً جعله البلاغيون مثالا للمساواة — وعرفوها بأنها تأدية أصل المراد بلفظ مساو له لا ينقص ولا يزيد — ولا يقدح فى المساواة حذف جواب الشرط فى البيت، لأن حذفه اقتضته الصنعة الإعرابية دون الافتقار إليه فى تأدية أصل المراد، ولو ذكر الجواب لكان فى البيت إطالة دون داع.

والبيت الثانى (خطاطيف حجن) هو البيت الذى اعتبره المصنف مثالا على الإساءة فى التشبيه. يقول الشاعر للملك نفسه: لك خطاطيف هذه صفتها فأنا أجر بها إليك، فالدنيا قد ضاقت به حتى كأنها من ضيقها فى بئر. وفى هذا تمثيل لسطوة الملك وأن الشاعر فى قبضة يده فلا مفر له ولا مهرب.

وقد جعل المبرد (الكامل: ٢ / ٣١) التشبيه فى هذا البيت من أعجب التشبيهات. وقال فيه ابن قتيبة (الشعر والشعراء: ١ / ١٧١): رأيت قوما يستجيدونه وهو غير جيد لا فى المعنى ولا فى التشبيه. وأقول: لكل وجهة.

أما البيتان الثانى والرابع فى كلام المصنف فالأول منهما (كأن مثار

النقع) لبشار من إحدى مدائحه فى يزيد بن عمر بن هبيرة . وفيها يقول فاخراً :

وكنا إذا دب العـــدو لسخطنا
وراقبنا فى ظـاهر لانراقبه

غدونا له والشمس فى خدر أمها تطالعنا ، والطل لم يجر ذائبه

بضرب يذوق الموت من ذاق طعمه
وتدرك من نجى الفرار مثـــالبه

كأن مثار النقـع فوق رءوسنا
وأسيافنا ـ ليل تهاوى كواكبه

وهذا البيت الأخير اعتبره عبد القاهر من النمط العالى فى النظم ، ومما لطف مأخذه ودق نظر واضعه ، وبلـغ به الغاية التى لا تلحق (أسرار البلاغة : ٧٥) وإنك لتجد له من الفضل وكرم الموقع ولطف التأثير فى النفس ما لا يقل مقداره ولا يمكن إنـكاره ، وذلك أنه شبه لمعان السيوف فى الغبار بالـكواكب فى الليل ، وقد كان هذا يكفى فى التشبيه ، ولـكنه زاد فجعل الـكواكب تتهاوى فأتم الشبه ، وعبر عن هيئة السيوف وقد سلت من الأغماد وهى تعلو وترسب وتجىء وتذهب ، ولهذه الزيادة التى زادها حظ من الدقة يجعلها فى حـكم تفصيل بعد تفصيل . وإن هيئة السيوف هذه لاتقوم فى النفس إلا بالنظر إلى أكثر من جهة واحدة ؛ وذلك أن تعلم أن لها فى حال احتدام الحرب واختلاف الأيدى بها فى الضرب اضطراباً شديداً وحركات مسرعة ، ثم إن لتلك الحركات جهات مختلفة وأحوالا تنقسم بين الاعوجاج والاستقامة والارتفاع والانخفاض ، وباختلاف هذه الأمور تتلاقى السيوف وتتداخل وتتصادم ويقع بعضها فى بعض ، ثم إن أشكال السيوف مستطيلة . وقد نظم الشاعر هذه الدقائق كلها فى نفسه ،

ثم أحضرك صورها بلفظة واحدة . ونبه عليها أحسن تنبيه وأكمله بكلمة « تهاوى » ، والكواكب إذا تهاوت اختلفت جهات حركاتها ، وكان لها فى تهاويها تواقع وتداخل ، ثم إنها بالتهاوى تستطيل أشكالها (أسرار البلاغة : ١٥١) .

والبيت الأخير (ألا إنما ليلى عصا خيزرانة) لكثير عزة ، وقد عابه بشار ، فقال : جعلها عصا ثم يعتذر لها ولو جعلها عصا من مخ أوزبد كان قد هجنها ، وهلا قال كما قلت :

إذا قامت لمشيتها تثنت كأن عظامها من خيزران

(انظر الكامل للمبرد : ٢ / ٨٠ والأغانى : ٣ / ١٥٤ وزهر الآداب : ١ / ٥٢) .

قلة التكلف

﴿ وأما سهولة القول وقلة التكلف فكقول الآخر :

خير المذاهب فى الحاجات أنجحها
وأضيق الأمر أدناه من الفرج

فهذا لفظ سهل قريب قد جرى فيه صاحبه على سجيته وعادته ، فإذا جئت إلى قول الآخر :

وما مثله فى الناس إلا مملكا أبو أمه حى أبوه يقاربه

وجدته قد تكلف تكلفاً غير خفى على سامعه ، فالقلوب له آبية ، والآذان عنه نابية ﴾ .

البيت الأول لأبى العتاهية — من نثرياته وماأكثرها وماأسهلها — ومعنى الشطر الثانى : أشد الأمر أقربه من الفرج كما قيل :

اشتدى ـ أزمة ـ تنفرجى قد آذن صبحك بالبلج

والبيت الثانى للفرزدق من قصيدة يمدح بها إبراهيم بن هشام بن إسماعيل ابن المغيرة المخزومى ، وهو خال الخليفة هشام بن عبد الملك ، والفرزدق يعنى بالمملك هذا الخليفة ، فهو يقول: ومامثله فى الناس حى يقاربه إلا مملك أبو أم هذا المملك هو أبو هذا الممدوح ، فدل على أنه خاله بهذا التأليف الملتوى . قال المبرد (الكامل ١ / ١٨) : ولو جاء بهذا الكلام على وجهه لكان قبيحا ، ولكنه هجنه بما أوقع فيه من التقديم والتأخير . ويسمى البلاغيون مثل هذا (التعقيد اللفظى) ، وقد أسلمه التقديم والتأخير إلى الفصل بين المبتدأ وخبره (أبو أمه — أبوه) ، والفصل بين الموصوف وصفته (حى — يقاربه) . وتقديم المستثنى (مملكا) على المستثنى منه (حى) .

جودة التفصيل

{ وأما جودة التفصيل فكقوله :

بِيض مفارقنا ، تغلى مراجلنا ، نأسو بأموالنا آثار أيدينا

وكقول الآخر:

بيضاء فى دعج ، صفراء فى نعج ،
كأنها فضة ، قد مسها ذهب }

التفصيل هو ترصيع أجزاء البيت بما يشبه السجع ، فيكون فى داخل

البيت ما يناظر القافية ، فيحدث إيقاعا داخليا يزيد الإيقاع العام رونقا وتأثيراً .

والبيت الأول من قصيدة مشهورة فى الفخر ، جاء فيها :

إنا ـ بنى نهشل ـ لا ندعى لأب   عنه ، ولا هو بالأبناء يشرينا
إن تبتدر غاية يوما لمكرمة   تلق السوابق منا والمصلينا
وليس يهلك منا سيد أبدا   إلا افتلينا غلاما سيدا فينا
إنا لنرخص يوم الروع أنفسنا   ولو نسام بها فى الأمن أغلينا
بيض مفارقنا تغلى مراجلنا   نأسو بأموالنا آثار أيدينا

وفى هذا البيت الشاهد يفخر الشاعر بالسيادة والكرم والشجاعة وكريم المواساة . والتفصيل فى شطره الأول أوضح منه فى شطره الثانى .

ونسب المبرد (الكامل : ١ / ٦٦) القصيدة إلى أبى مخزوم من بنى نهشل ابن دارم ، وذكر الأخفش أن اسمه بشامة بن حزن النهشلى . ونسبها ابن قتيبة (الشعر والشعراء : ٢ /٦٢٧) إلى نهشل بن حرى المازنى وهو شاعر مخضرم عاش إلى أيام معاوية ، وقال عنه : شاعر حسن الشعر ، وتابعه فى هذا ابن طباطبا (عيار الشعر : ٦٤) .

والبيت الثانى لذى الرمة من قصيدته البائية التى مطلعها :

ما بال عينك منها الماء ينسكب   كأنه من كلى مفرية سرب

ورواية الديوان (كحلاء فى دعج ، .) ورواية المثل السائر : ١ / ٣٦٦ والصناعتين : ٢٧٧ (كحلاء فى برج ..) . والكحلاء ذات الكحل خلقة وطبيعة ، والدعج شدة سواد العين مع شدة بياضها ، والبرج سعة العين ، والنعج حسن اللون وخلوصه .

المشاكلة فى المطابقة

« وأما المطابقة والمشاكلة فيها فكقول الشاعر :

نعرض للطعان إذا التقينا وجوها لا تعرض للسباب

وقول الآخر :

سموه أحمد فالإسلام يحمده والدهر كاسم أبيه مرع خصب »

البلاغيون المتأخرون على أن المطابقة تعنى الجمع بين معنيين متقابلين كما فى قوله تعالى : (قل اللهم مالك الملك ، تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء) ؛ ففيه مطابقة بين الإيتاء والنزع ، ومطابقة بين الإعزاز والإذلال .

والبلاغيون المتأخرون على أن المشاكلة هى ذكر الشىء بلفظ غيره لوقوعه فى صحبة ذلك الغير تحقيقاً أو تقديراً ، فالأول كقول الشاعر :

قالوا : اقترح شيئاً نجد لك طبخه قلت : اطبخوا لى جبة وقميصا

فذكر خياطة الجبة والقميص بلفظ الطبخ لوقوعه فى صحبة طبخ الطعام . ومثال المشاكلة التقديرية قوله تعالى : (صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة) فيه ذكر تطهير الله المؤمنين بالإيمان بلفظ الصبغة لوقوعه — ائتناساً بأسباب النزول أى رعاية لدلالة الحال — فى صحبة صبغة النصارى أبناءهم بالماء الأصفر ، وهو مايسمونه «التعميد» .

والمصنف جعل من صناعة الشعر (المطابقة والمشاكلة فيها) وسماها قبل ذلك فى ص ٨٨ (المشاكلة فى المطابقة) ، فالمطابقة هى الأصل فى الصنعة ، والمشاكلة قيد فيها للوصول بها إلى غاية الرونق ، ومن هنا نستبعد «المشاكلة» بمفهوم المتأخرين ، فماذا يقصد بالمطابقة إذن ؟

عرف ابن المعتز — فى كتاب البديع — المطابقة بأنها الجمع بين الشيئين على حذو واحد، وقال: تقول لصاحبك: أتيناك لتسلك بنا سبيل التوسع فأدخلتنا فى ضيق الضمان، فقد طابق بين السعة والضيق. وجاء قدامة — فى نقد الشعر — فجعل المطابقة والمجانسة شيئاً واحداً، وجعلهما من باب ائتلاف اللفظ والمعنى، فإن كانت فى الشعر معان متغايرة قد اشتركت فى لفظة واحدة (فهو المطابق) وإن كانت فى ألفاظ متجانسة مشتقة (فهو المجانس)، فمثال الأول قول الأفوه الأودى:

وأقطع الهوجل مستأنسا   بهوجل عيدانة عنتريس

فلفظة الهوجل تعنى الأرض وتعنى الناقة — والعيدانة الطويلة من النخيل، والعنتريس الناقة الوثيقة — ومثال الثانى قول حسان بن ربعة الطائى:

لقد علم القبائل أن قومى   لهم حد إذا لبس الحديد

والمطابقة على رأيه بين حد والحديد، وهذا عند المحققين من الجناس.

قال أبو هلال العسكرى (الصناعتين ٣٠٧): أجمع الناس على أن المطابقة فى الكلام هى الجمع بين الشىء وضده، وخالفهم قدامة إذ قال: المطابقة إيراد لفظتين متشابهتين فى البناء والصياغة مختلفتين فى المعنى. والطباق فى اللغة الجمع بين الشيئين، يقولون: طابق فلان بين ثوبين، ثم استعمل فى غير ذلك، فقيل: طابق البعير فى سيره إذا وضع رجله موضع يده، وهو راجع إلى الجمع بين الشيئين.

وفى تقديرى أن المصنف أراد من المطابقة معناها المشهور وما أراده قدامة من المجانس، بدليل المثالين اللذين استشهد بهما. والمشاكلة فيها بمعنى الموافقة، وقد تكون الموافقة فى الألفاظ، وفى المعانى.

وشاهد المصنف الأول للقتال الكلابى (عن الكامل للمبرد : ١/٦٨) يفخر بالشجاعة والجرأة والإقدام ، وبالطهر والشرف والسؤدد . والمطابقة فى البيت جارية على المشهور من أنها الجمع بين الشيء وضده .

والشاهد الثانى لمحمد بن غياث الكاتب يمدح أحمد بن الخصيب ، والمطابقة فى البيت جارية على مذهب قدامة فى المجانس ، فهى أولا بين أحمد ويحمد ، وثانيا بين الخصيب — المعبر عنه باسم أبيه — وخصب .

وحدة البيت

« ومما ينبغى له [أى الشاعر] أيضا أن يجتهد فيه : أن يكون معنى كل بيت ولفظه متساويين حتى يتم المعنى بتمام اللفظ ، كما قال الشاعر :

ولا يواتيك فيما ناب من خلق إلا أخو ثقة فانظر بمن تثق

فهذا بيت قد تم معناه بتمام لفظه من غير حشو ولا تضمين . وكذلك قوله :

وقف الهوى بى حيث أنت فليس لى متأخر عنه ولا متقدم
أجد الملامة فى هواك لذيذة حبا لذكرك فليلمنى اللوم

فأما إذا تم المعنى قبل تمام البيت فالشاعر حينئذ محتاج إلى حشو البيت بما لا فائدة فيه من اللفظ ، وذلك مثل قول الشاعر :

وقد أروح إلى الحانوت يتبعنى شاو مشل شلول شلشل شول

وإن تم لفظ البيت قبل أن يتم معناه احتاج إلى أن يضمن البيت الثانى تمام المعنى ، كقول الشاعر :

وجناح مقصوص تحيف ريشه ريب الزمان تحيف المقراض

فهذا لا يقوم بنفسه ولا يبين عن معنى ما أريد به حتى يأتى معناه فى البيت الثانى ، وهو :

فنعشته ووصلت ريش جناحه وجـــبرته يا جابر المنهاض

وجيعاً معيبان ، فينبغى أن تتجنبهما ماوجدت السبيل إلى ذلك .

واعلم أن الشاعر إذا أتى بالمعنى الذى يريد أو المعنيين فى بيت واحد كان فى ذلك أشعر منه إذا أتى بذلك فى بيتين ، وكذلك إذا أتى شاعران بذلك ، فالذى يجمع المعنيين فى بيت أشعر من الذى يجمعهما فى بيتين ولذلك فضل قول امرىء القيس :

كأن قلوب الطير رطباً ويابسا لدى وكرها العناب والحشف البالى

على قوله :

كأن عيون الوحش حول خبائنا وأرحلنا الجزع الذى لم يثقب

لأنه جمع فى البيت الأول وصف شيئين بشيئين ، وإنما وصف فى هذا شيئا بشىء » .

يسير المصنف فى الاتجاه التقليدى، يرى أن يستقل البيت بمعناه ولفظه. وهو يعد الحشو عيبا ، ويعتبر التضمين معيبا ، ويطرى انطواء البيت على معنى واحد ، والأفضل عنده أن يتضمن البيت معنيين وأكثر .

وهذا كله هو المقصود بوحدة البيت .

والحشو زيادة فى الكلام متعينة ، ويكون فى البيت حشو إذا تم المعنى قبل تمام لفظ البيت ، فيضطر الشاعر إلى أن يحشو ؛ أى يضيف إلى الكلام الذى تم عنده المعنى مالاغناء فيه من اللفظ .

والتضمين المعيب هو التضمين العروضى،وهو احتياج البيت — ليكتمل المعنى — إلى بيت آخر ، فالمعنى يطول عن أن تحتمل العروض تمامه فى بيت واحد فيقطعه الشاعر بالقافية ويتمه فى بيت يليه ، والمشهور تسمية هذا اللون (التضمين) وسماه قدامة (فى نقد الشعر : ١٤٠) : « البتر » . وهناك

لون بديعى يسمى (التضمين) ـ يسميه بعضهم الاقتباس ـ وهو أن يودع المنشىء كلامه شيئا من كلام غيره ، وعليه أن ينبه عليه إلا إذا كان مشهوراً ، وإلا عد سرقة ، ومثاله قول الحريرى فى المقامة الزبيدية :

على أنى سأنشد عند بيعى : « أضاعونى وأى فتى أضاعوا »

فالشطر الأخير صدر بيت مشهور بجزه (ليوم كريهة وسداد ثغر) .

وعند المصنف أن قيام معنيين فى بيت واحد أفضل من استقلاله بمعنى واحد ، وأفضل من قيامهما فى بيتين كل معنى فى بيت .

ونعود إلى الأمثلة التى ساقها شواهد لرأيه :

فالبيت (ولا يواتيك) ـ وهو لسالم بن وابصة ـ تحقق له الاستقلال بمعناه ولفظه معا . ومضمونه : لا يسعفك فيما ينزل وينوب إلا ذو ثقة ، فعليك بانتخاب صحبك ممن ينالون ثقتك . والبيتان (وقف الهوى) — وهما لأبى الشيص ـ من هذا الوادى ، والبيت (وقد أروح إلى الحانوت يتبعنى شاو) وقف معناه عند هذا الحد ، وفيه يصف الأعشى صبوة الشارب يخدمه شاو أى غلام يشوى اللحم مثل أى نادل سريع فى الخدمة ، والمشل والشلول والشلشل والشول بمعنى ، وقيل : المشل المسرع ، والشلول الخفيف فى العمل ، والشلشل الماضى فى الخدمة وقضاء الحوائج ، والشول المخرج اللحم من القدر ، وعلى هذا تختلف معانيها الجزئية ، ويبقى القول فى هذا الإلحاح على التجنيس .

والبيتان (وجناح مقصوص) — لأبى الشيص فى مدح عقبة بن جعفر — لا يستقل البيت الأول منهما بمعناه فى مجال المدح فهو محتاج إلى البيت الثانى ومرتبط به ارتباطا معنويا .

وقول امرىء القيس (كأن قلوب الطير) أفضل من قوله (كأن عيون الوحش) عند من يجمع المعانى فى أقل لفظ .

فالبيت الأول يصف العقاب تأكل صغار الطير إلا قلوبها ، ولهذا كثرت لدى وكرها ، فالذى جف منها ويبس يشبه الحشف البالى — والحشف أردأ التمر أوأضعفه الخالى من النوى أو الفاسد منه — والذى ما زال رطبا يشبه العناب وهو ثمر أحمر رطب ، وكلا هذين النوعين لايتميز أحدهما من الآخر عند وكر العقاب ، ولذا كان التشبيه فى الصورة والهيئة (راجع عيار الشعر : ١٨ والصناعتين : ٢٤٥) وهذا التشبيه من نادر الكلام ونمطه العالى (دلائل الإعجاز : ٧٥) .

وفى البيت الثانى : يصف عيون الظباء والبقر الوحشى حول الخباء — وكانوا يصيدونها ويأكلون لحمها ويتركون رءوسها حول الأخبية — ويشبهها بالجزع الذى لم يثقب ، والجزع خرز يمانى فيه سواد وبياض ، وعن الأصمعى أن الظباء والبقر تبدو عيونها سوداً وهى حية فإذا ماتت بدا البياض فيها فأشبهت الجزع ، والتشبيه فى الصورة (عيار الشعر : ١٨) وفيه تمثيل عجيب (الكامل للمبرد : ٣٦/٢) وفيه إيغال[١] بقوله (لم يثقب) ليزيد التشبيه توكيداً ، لأن الجزع إذا كان غير مثقب أشبه العيون (سر الفصاحة : ١٨٠) .

---

(١) الإيغال من ألوان الأطناب ومعناه أن يستوفى المتكلم معنى الكلام قبل البلوغ إلى مقطعه ثم يأتى بالمقطع فيزيد معنى آخر لفائدة الإيضاح أو الشرح أو التوكيد (عن الصناعتين ٣٨١) .

الشعر بين الاقتصاد والسرف

﴿ وللشاعر أن يقتصد فى الوصف أو التشبيه أو المدح أو الذم ، وله أن يبالغ ، وله أن يسرف حتى يناسب قوله المحـال ويضاهيه ، ولا يستحسن السرف والكذب والإحالة فى شىء من فنون القول إلا فى الشعر ، وقد ذكر « أرسطاطيس » الشعر فوصفه بأن الكذب فيه أكثر من الصدق ، وذكر أن ذلك جائز فى الصناعة الشعرية ، فمما اقتصد الشاعر فيه قوله :

يخبرك من شهد الوقيعة أننى أغشى الوغى وأعف عند المغنم

ومما بالغ فيه قوله :

يطعنهم ما ارتموا حتى إذا اطعنوا
ضارب حتى إذا ماضاربوا اعتنقا

فجعل له عليهم فى كل حال من أحوال البسالة والشجاعة فضلا ومبالغة . ومما أسرف فيه الشاعر حتى أخرجه إلى الكذب والمحال وهو مع ذلك مستحسن قوله :

تغطيت من دهرى بظل جناحه فعينى ترى دهرى وليس يرانى
فـلو تسأل الأيام عنى ما درت
وأين مكانى ما عرفن مكانى ﴾

أطلق المصنف للشاعر أن يعرض معانيه فى صورة مقتصدة أو مبالغة أو مسرفة ، وأن يلجأ إلى أكاذيب الشعر وهى خيالاته ، وأن يصل بها إلى درجة الإحالة .

وشاهد الاقتصاد بيت لعنترة من معلقته ، ووقع جوابا لقوله قبل :

هلا سألت القوم يا بنة مالك ... إن كنت جاهلة بما لم تعلمي
إذ لا أزال على رحالة سابح ... نهد تعاوره الكماة مكلم
طورا يعرض للطعان ، وتارة ... يأوى إلى حصد القسى عرمرم
يخبرك من شهد الوقيعة أننى ... أغشى الوغى وأعف عند المغنم (١)

وفى البيت يفخر بأنه جرىء شجاع ، وبأنه كريم ذو مروءة وعفة ، وهذا فخر فاخر مقتصد لا يبالغ فى صفة نفسه .

وشاهد المبالغة بيت لزهير بن أبى سلمى من قصيدته :

إن الخليط أجد البين فانفرقا
وعلق القلب من أسماء ما علقا

فى مدح هرم بن سنان ، يصفه بأنه يجيد القتال فى جميع الأحوال ، فهو يطعن أعداءه برمحه حتى إذا تطاعنوا بالرماح ضاربهم بسيفه حتى إذا ضاربوه طالهم بيده فاعتنقهم فأوتعهم أرضا ، فهو فى كل حال من أحوال الحرب يمتاز عليهم ويزيد .

وشاهد السرف ببيتان لأبى نواس من قصيدة مطلعها :

لمن طلل لم أشجه وشجانى ... وهاج الهوى أو هاجه لأوان

وهى فى مدح محمد بن الفضل بن الربيع ، يقول أبو نواس :

فلما قضت نفسى من السير ما قضت ... على ما بلت من شدة وليان

---

(١) ابنة مالك : عبلة محبوبته . رحالة سابح : سرجه والسابح الفرس يبسط يديه معا عند العدو . نهد: غليظ الصدر . تعاوره الكماة : تتعاوره أى تتناوبه بالطعان والكماة جمع كمى وهو الفارس التام السلاح . مكلم : مجرح . حصد القسى : محكمها والقسى الأقواس . عرمرم : كثير . الوقيعة : الحرب . الوغى : أصوات أهل الحرب واستعير للحرب نفسها . المغنم : الغنيمة .

أخذت بحبل من حبال محمد أمنت به من نائب الحـــدثان

تغطيت ...الخ . ورواية الديوان (فلو تسأل الأيام ما اسمى مادرت). والجناح هو جناح الممدوح ، والمراد بظل جناحه ما أسبغه على الشاعر برأ وصيانة وحياطة وحماية

الشعر بين الجد والهزل

﴿ ومما يزيد فى حسن الشعر أن يكون قد عمد إلى معانى شعره فجعلها فيما يشاكلها من اللفظ ، فلا يكسو المعانى الجدية ألفاظا هزلية فيسخفها ، ولا يكسو المعانى الهزلية ألفاظاً جدية فيستوخمها سامعها(١) ، ولكن يعطى كل شيء من ذلك حقه ويضعه موضعه ، ويمتثل فى ذلك ما وصف به الشاعر بعض الحذاق بترتيب الكلام فقال :

أخو الجد إن جاددت أرضاك جده
وذو باطل إن شئت ألهاك باطله ﴾

وبعده على ما رواه فى ديوان الحماسة للعجير السلولى فى باب الرثاء :

يسرك مظلوما ويرضيك ظالمـــا
وكل الذى حملته فهو حامـــله

أى : أنه جاد إن طلبت منه الجد ، ومبطل إن دفعت به إلى الباطل ، وأنه سرك بأن ينتقم لك من ظالمك ، ويرضيك بالانتصار لك والوقوف إلى جانبك إن هضمك غيرك فطلبت نصرته ، وقد ساق هذه المعانى على طريقة أهل الجاهلية .

﴿ ومما يزيد فى حسن الشعر ألا يجعل شعره كله جدا فيستثقل ، إذ كانت النفوس ربما ملت الحق واستثقلته ، واحتاجت إلى أن تمترى

(١) يستوخمها سامعها : يعدها وخيمة غير سائغة وغير موافقة .

نشاطها وتبقى جمامها بشيء(١) ، وألا يجعل شعره كله هزلا فيكسد عند ذوي العقول ، ولكن يخلط جدا بهزل ، ويستعمل كلا فى موضعه وعند أهله ومن ينفق عنده . وممن عرف هذا المعنى فى الشعر وأخذ فيه ، وأبر فيما أتى منه على من تقدمه أبو نواس ، فإنه يقول :

أنت امرؤ أوليتنى نعماً ... أوهت قوى شكرى فقد ضعفا
لا تحدثن إلىّ عارفة ... حتى أقوم بشكر ما سلفا

ويقول أيضاً :

تنازع الأحمدان الشبه بينهما ... خلقا ، وخلقا ، كما قد الشراكان
شبهان لا فرق فى المعقول بينهما ... معناهما واحد ، والعدة اثنان

حتى يقول :

عتقت فى الدن حتى ... هى فى رقة دينى

ويقول : اطلبي لى مراجرا ... واذهبي أنت ، قحبى
لست ما عشت مدخلا ... إصبعى جحر عقرب

فاجتباه العلماء لما جد فيه ، وقال أبو عمرو أو غيره : لولا ما أخذ فيه أبو نواس من الإرفاث لاحتججنا بشعره . واجتباه الخلعاء وأهل الهزل لمجونه ولما هزل فيه ».

وعند المصنف أن أبا نواس مثال جيد للشاعر الذى يأخذ شعره بالجد وبالهزل على حد سواء ، فهو جاد فيما مدح به العباس بن عبيد الله بن أبي جعفر المنصور ، فقد أولاه النعم والعطايا الكثيرة التى لم يستطع شكرها . وإنه من كثرة ما تحمل منها يرجوه ألا يسدى إليه معروفاً جديداً حتى يقوم بشكر ما سلف . وهو جاد فيما مدح به الأمين من قوله :

---

(١) تمترى نشاطها : أى تستخرجه . وتبقى جمامها : أى تبقى راحتها.

تنازع الأحدان الشبه بينهما . . . . البيتين

والأحدان الممدوح والرسول . وخلقا (بالفتح) : خليقة وشكلا . وخلقا (بالضم — ويأتى بضمتين) . سجية وطبعا ومروءة ودينا . وقد الشراكين : قطعا ، والشراكان مثنى شراك (وزان كتاب) وهو سير النعل الذى يكون على ظهر القدم وهو يقطع جزءين متساويين . والعدة : العدد . ومن الواضح أن الشاعر نبا ذوقه فى هذه التسوية بين الرسول والأمين ، وفى تقرير التنازع بينهما ، وفى انتخاب المشبه به ، وفى منطقه الرياضى .

وأبو نواس هازل فى خمرياته هزلا يعرض فيه بدينه ، كما يقول فى الخمر :

عتقت فى الدن حتى   هى فى رقة دينى

فالخمر صارت عتيقة أى قديمة وصارت رقيقة تشبه فى رقتها دينه الرقيق الضعيف ، ولعمرى لقد صدق فى اعترافه .

وأبو نواس هازل فى مجونه . ها هو ذا يقول : (اطلبى لى مواجرا) يخاطب فى هذا امرأة تزوجها فبقى معها سحابة نهار ثم طلقها فى آخره ، ويدعوها أن تلتمس له غلاما لوطيا ، وأن تشتغل قحبة .

وهذا وأمثاله مادعا بعض الرواة إلى رفض الاحتجاج بشعره لما فيه من إرفث أى فحش ، لأن المفحش لا يستقيم لسانه . ولذا رفضه أئمة اللغة فلم يستشهدوا بشعره لمجونه ، وعلى رأسهم — كما يقول المصنف — «أبو عمرو» ولعله يقصد أباعمرو إسحاق بن مرار الشيبانى (ت ٢٠٦ هـ) ، وهو من أئمة اللغة والنحو والحديث والرواية .

وضع المعانى فى مواضعها

﴿ فأما وضع المعانى فى مواضعها التى تليق بها ، فكقول امرىء القيس فى عنفوان أمره وجدة ملكه :

فلو أن ما أسعى لأدنى معيشة ... كفانى ـ ولم أطلب ـ قليل من المال
ولكنما أسعى لمجد مؤثل ... وقد يدرك المجد المؤثل أمثالى

فوضع طلب الرفعة وسمو المنزلة موضعها إذ كان ملكا ؛ لأن ذلك يليق بالملوك . ثم وضع القناعة موضعها لما زال عنه ملكه وصار كواحد من رعيته ؛ لأن ذلك أولى بمن هذه منزلته ، فقال :

إذا مالم تكن إبل فمعزى ... كأن قرون جلتها العصى
إذا ما قام حالبها أرنت ... كأن الحى بينهم نعى
فتملأ بيتنا أقطاً وسمنا ... وحسبك من غنى شبع ورى(١) ﴾

وعند المصنف أن امرأ القيس خير مثال لمن يضع المعانى فى مواضعها التى تليق بها ، فهو فى بيتيه يطلب الرفعة فوضعها موضعها وسعى إلى المجد المؤثل . والمجد المؤثل هو المجد الأصيل . وقليل فى البيت الأول رفع فاعلا لكفى ولا يصح أن ينصب مفعولا لأطلب . والتقدير : لو أسعى لأدنى معيشة كفانى قليل من المال ولم أطلب الملك . ونمنع أن يكون البيت شاهداً للتنازع لأن إجازة التنازع تنطى الحق فى إجازة النصب فيفسد المعنى ؛ لأن قوله لو أن ما أسعى لأدنى معيشة يستلزم نفى مثل هذا السعى الدون ، وتقدير لم أطلب قليلا من المال يستلزم قيام هذا السعى الدون ، فيجتمع المتضادان ، وهو محال . والبيت الثانى تفسير لمسعاه العظيم .

---

(١) المعزى : الماعز . وجلتها : المسنة منها . أرنت : بمعنى صوتت ، والصوت للشخب الذى يقع فى الإناء من اللبن . والأقط : نوع من الجبن .

فلما ساء أمره وزال عنه ملكه تطامنت نفسه فتطامن شعره ، وكانت هذه الأبيات (إذا مالم تكن أبل فمعزى) وقصتها: أنه استعان فى محاربة قتلة أبيه ببنى نبهان وأعطاهم رواحله فأخذت منهم فوهبوه بدلا منها ماعزا .ونقل الوزير أبو بكر بن أيوب شارح ديوانه عن الأصمعى أنه ينكر هذه الأبيات ويقول بانتحالها لأن همة امرىء القيس لاتنحط إلى مثل هذا الدرك .

التوقيعات

ومن موجز التوقيعات : وقع أبو صالح بن يزداد إلى رجل أذنب (قد تجاوزت عنك . فإن عدت أعدت إليك ماصرفته عنك) ، وإلى آخر خافه : (ليس عليك بأس مالم يكن منك بأس) . وإلى آخر أدل بكفاية : (أدللت فأمللت ، فاستصغر مافعلت تنل ما أملت)(١) ، ووقع المأمون إلى عامل له شكى:(قد كثر شاكوك.وقل شاكروك،فإما عدلت ، وإلا اعتزلت) ووقع فى أمر الجند : (لايعطوا على الشغب ، ولا يحرجوا إلى الطلب)(٢) ، ووقع طاهر بن الحسين : (والله لئن هممت لأفعلن ، ولئن فعلت لأبرمن ، ولئن أبرمت لأحكمن)(٣) : ووقع يحيى بن خالد فى نكبته إلى رجل سأله

---

(١) أبو صالح بن يزداد من وزراء العباسيين أيام المستعين بالله.والبأس الأول الخوف ، والثانى الشدة والقوة وقد يكون الخوف أيضا .

(٢) المأمون هو الخليفة العباسى السابع تولى الخلافة سنة ١٩٨ هـ ومكث فيها عشرين سنة. والفعلان فى التوقيع الثانى مبنيان للمفعول وواقعان فى النهى. والشغب تهييج الشر والخروج على الطاعة .

(٣) طاهر بن الحسين هو قائد جيوش المأمون فى حربه مع أخيه الأمين وهممت من الهم وهو العزم القوى أو أول العزم ، وأبرمت من الإبرام وهو هنا التدبير ، وأحكمن من الإحكام وهو الإتقان .

عن حاله : (أحسن الناس حالا فى النعمة من ارتبط مقيمها بالشكر ، واسترجع ماضيها بالصبر)[١] ، ووقع محمد بن خالد إلى عامل له : (أجر أمورك على ما يكسبك الثناء ، ويكسبنا الدعاء ، واعلم أنها أيام تنقضى ، وأعمار تنتهى ؛ فإما ذكر جميل ، أو خزى طويل)[٢] ﴾ .

المراد من التوقيعات تعليقات أولى الأمر والرأى من الخلفاء والوزراء والولاة على ما يرفع إليهم ، والكلمة مستعارة من عدة معان أصلية ؛ فمن معانى التوقيع شحذ السيف والسكين وجلاؤهما بالميقعة أى المطرقة ، وتوقيع الرئيس جلاء للأمر الذى رفع إليه وتهيئته للنفاذ حسبما وقع . ومن معانى التوقيع التأثير القليل فيقال مثلا : جنب هذه الناقة موقع أى أن فيه تأثيرا خفيا من الحبال التى تشد عليها ، وتوقيع الرئيس تأثير خفيف إلى جنب ما كتب من عبارات . ومن معانيه إيقاع شىء صغير على آخر مع تخالف فى لونيهما كما يظهر فى الدابة بياض إثر ندبة ، ولعل التوقيع كان يكتب عادة بمداد أحمر يخالف سواد الصحيفة . ومن معانيه الرمى القريب لا تباعده كأنك تريده أن يصيب الهدف ، والموقع فى الصحيفة يحاول بتوقيعه أن يصل إلى كبد الرأى .

---

(١) يحيى بن خالد البرمكى ، مؤدب الرشيد قبل خلافته ، ووزيره بعدها . وارتبط مقيمها بالشكر بمعنى ربط حاضر النعمة بالشكر ، فالنعمة قد صارت مذللة له كالدابة الذلول فهو يشدها إليه ولا يفلتها .

(٢) محمد بن خالد بن يزيد بن مزيد الشيبانى — على مارجحه محققا نقد النثر — هامش ص ١٠٣ — ط ١٩٢٩ — قلده المستعين بالله الثغور البحرية وكان له بلاء فى الفتن التى وقعت فى العراق سنة ٢٥١ هـ

السجــع

﴿ومن أوصاف البلاغة أيضاً السجع فى موضعه ، وعند سماحة القريحة به ، وأن يكون فى بعض الكلام لا فى جميعه ؛ فإن السجع فى الكلام كمثل القافية فى الشعر ، وإن كانت القافية غير مستغنى عنها والسجع مستغنى عنه ، فأما أن يلزمه الإنسان فى جميع قوله ورسائله وخطبه ومناقلاته فذلك جهل من فاعله ، وعى من قائله . وقد رويت الكراهية فيه عن رسول الله ﷺ فروى أن رجلا سأله فقال : «يا رسول الله ، أرأيت من لا شرب ، ولا أكل ، ولا صاح فاستهل ، أليس مثل ذلك يطل(١)» قال [الراوى] فقال [الرسول] : «أسجع كسجع الجاهلية ؟!» وإنما أنكر — صلى الله عليه وسلم — ذلك لأنه أتى بكلامه مسجوعا كله ، وتكلف فيه السجع تكلف الكهان .

وأما إذا أتى به فى بعض كلامه ومنطقه ولم تكن القوافى مختلفة متكلفة ولا متمحلة مستكرهة ، وكان ذلك على سجية الإنسان وطبعه ، فهو غير منكر ولا مكروه ، بل قد أتى فى الحديث : (ويقول العبد : مالى مالى وما له من ماله إلا ما أكل فأفنى ، أو لبس فأبلى ، أو أعطى فأمضى).﴾

أقول: كان للكهان فى الجاهلية شأن خطير ، فقد كانوا محور حياة الناس الاجتماعية ، يستفتونهم فى الملمات ، ويستقضونهم فى الخصومات ، ويستطبونهم فى العلل والأمراض ، ويستنبئونهم فى غيب المستقبل ، وكان أولئك الكهان ذوى فراسة ، استغلوها فى التسلط على الناس ، واستغلوا معها منطق السجع للتأثير عليهم والطرق على آذانهم ؛ ومن أشهر الكهان : سطيح الذئبى ،

---

(١) يسأل الرجل عن دية الجنين . واستهل : رفع صوته عند الولادة ويطل : أى لا تدفع فيه دية .

وشق أنمار ، ومن الكواهن طريفة الخير ؛ وفاطمة الخثعمية(١) ومن أسجاعهم ما ينسبونه إلى سطيح ، أرسل إليه كسرى لما ظهرت العلامات الدالة على مولد الرسول — ﷺ — رسولا اسمه عبد المسيح بن بقيلة الغسانى ، فجاءه وقد أشرف على الموت ، فلما كلمه رفع إليه سطيح رأسه ثم قال: (عبد المسيح ، على جمل مشيح، إلى سطيح ، وقد أوفى على الضريح. بعثك ملك بنى ساسان ، لارتجاس الإيوان ، وخمود النيران، ورؤيا الموبذان. رأى إبلا صعابا ، تقود خيلا عرابا ، قد اقتحمت فى الواد ، وانتشرت فى البلاد. عبد المسيح ، إذا ظهرت التلاوة ، وغاض وادى السماوة ، وظهر صاحب الهراوة، فليست الشام، لسطيح بشام . يملك منهم ملوك وملكات، عدد سقوط الشرفات، وكل ما هو آت آت) .

ومما تكلم به بعضهم فأتى بالسجع فيه محمودا ، ومن الاستكراه بعيدا ، قوله : (الحمد لله الذى ذخر المنة لك ، وأخرها حتى كانت منك ، فلم يسبقك أحد إلى الإحسان إلى ، ولم يحاصك أحد فى الإنعام على ، ولم تتقسم الأيادى شكرى فهو لك عتيد ، ولم تخلق المنن وجهى فهو لك مصون جديد ، ولم يزل ذمامى مضاعاً حتى رعيته ، وحقى مبخوساً حتى قضيته ، ورفعت من ناظرى بعد انخفاضه ، وبسطت من أملى بعد انقباضه ، فليس أعتد يداً إلا لك ، ولا منة إلا منك ، ولا أوجه رغبتى إلا إليك ، ولا أتكل فى أمرى بعد الله إلا عليك ، فصانك الله عن شكر من سواه ، كما صنتنى عن شكر من سواك) .

﴿ والحمد لله أولا وأخيراً ﴾

---

(١) وفى بعض الأخبار أنها عرفت علامة النبوة فى عبد الله بن عبد المطلب قبل زواجه من السيدة آمنة بنت وهب ، فأرادت فاطمة أن تحتازه وراودته عن نفسها ، فامتنع منها .

فهرس الموضوعات

رقم الإيداع بدار الكتب ٤٠٦٠ / سنة ١٩٧٩ م